

معركة الأبطال
تأليف
ميشال زفاكو
المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

- ١ -

معركة جديدة

ذهب باردليان الكبير الى فندق دفينير ، ليدفع لصاحبه ما عليه من الديون ، فاستقبله الرجل وزوجته استقبالا حارا .

وقد طلب باردليان من (لا ندري) ، صاحب الفندق ان يقدم له حسابه ، فأسرع هذا الى مكتبه فرحا ، ليأتي بورقة الحساب .

وعندئذ التفت باردليان الى زوجة لا ندري .

وقال لها :

ــ عليّ ان اشكرك باسم ابني الذي اخبرني انه مدين لك بالكثير من العطف والرعاية .

فقالت وقد احمر وجهها :

ــ انه ليس مدينا لي بشيء .

ــ بل لقد قال لي انه لن ينساك في حياته ، وكلفني ان اقبلك بالنيابة عنه .

فاضطربت ، وزاد احمرار وجهها .

وقالت :

ـ اهو قال لك ذلك ؟

ـ نعم .

ـ اذاً فاحمل اليه رسالتي .. وقل له انها تحبه .

فذهل باردالیان وسألها :

ـ من هذه التي تحبه ؟

ـ لويزا .. التي يحبها .

فجن باردالیان من الفرح .. وهجم على المرأة يقبلها ، وهو يقول :

ـ لقد فرّجت همي قبل تفريج همه .

وكان ان اقبل في هذه اللحظة ثلاثة رجال الى الفندق ، وصاح احدهم يقول لما شاهده :

ـ لقد ظفرنا به اخيرا .

وهجموا على باردالیان ، فرفس هذا الطاولة بقدمه ، وجرد حسامه ، وجعل يتلقى هجمات الثلاثة هادئا جامدا ، كأنه الصخر .

وكان هؤلاء الثلاثة ، كاليس وموتنغرون ومورفر .

ولم يكن باردالیان بعد الجراح التي اصيب بها في المدة الاخيرة قويا نشيطا كعادته .

ولهذا وقف من الثلاثة موقف الدفاع ، حتى اذا وصل الى باب القاعة ، رفس طاولة امامه واسرع اليها ، واقفل الباب خلفه .. وكان قد اصيب بثلاثة جراح بسيطة .

وفي هذه اللحظة غادرت صاحبة الفندق الصالة هاربة ، وكان للقاعة التي دخل اليها باردالیان بابان ، واحد يشرف على المطبخ ، والآخر على الطريق .

فلما احتوته القاعة ، وضع خلف الباب بعض الحواجز ، ثم اسرع الى الباب المؤدي للطريق ، فاراد فتحه ، فوجده مقفلا ، فأسقط في يده ،

وادرك ان خصومه سوف يتمكنون منه آخر الامر .

ثم حدثت المعجزة ، ففتح الباب المقفل ، وظهرت صاحبة الفندق على عتبته ، وهي تقول :

ــ اسرع بالفرار .

فلما مضى في سبيلـه بعد ان شكرها ، اقفلت البـاب ، وعادت الى الصالة حيث كان الثلاثة قد تمكنوا من كسر الباب الخارجي ، واسرعـوا الى الباب الداخلي الذي هرب منه بارداليان ، يريدون تحطيمه ايضا .

ولكن زوجة صاحب الفندق قالت لهم :

ــ لا حاجة الى كسره سآتيكم بمفتاحه .

ولما جاءتهم بعد قليل بالمفتاح ، ووجدوا ان الباب يطل على الطريق ، ادركوا ان بارداليان قد تمكن من النجاة .

وكان صاحبنا في هذه الاثناء ، قد اسرع الى حانة (كاتي) ، صاحبة الخمارة الجديدة ، حيث اجتمع الى بعض رجال السيف من اصدقائـه ، واتفق معهم على مغادرة باريس الليلة .

وكانت لويزا قد سمعت بعض حـديث بارداليان الكبير مـع ابنه ، وفطنت الى انقطاع امل الشاب ، فذهبت اليه بعد ان اصبح وحده .

وقـالت :

ــ لقد سمعت انك تريد السفر الى مكان بعيد بعد ان تطمئن الـى سلامتنا ، فما الذي يدعوك الى ذلك ؟. هل مللت عشرتنا ، وضقت ذرعا بالاقامة معنا ؟

فأغمض بارداليان عينيه وقال :

ــ كيف املّ البقاء في الجنة ؟

ــ اذا لماذا تريد السفر ؟. والواقع انك لا تريد السفر ، وانما تريـد ان تموت .

ــ هذه هي الحقيقة ..
ــ ولماذا تريد الموت ؟
فقال :
ــ لاني احبك .
فقالت :
ــ اذن تريد ان اموت انا ايضا ؟
وعندئذ ركع بارداليان امام قدميها وقد اسكره ، وهو يقول :
ــ لويزا .. لقد اعدت اليّ الحياة ، ولن افكر بالموت بعد اليوم .
وانحبس الكلام في لسانه ، وغض بصره ، فهربت لويزا من الغرفة .
فلما عاد بارداليان الى نفسه ، وقف كالمجانين ، وجرد حسامه ، ودنا من النافذة المشرفة على اللوفر .
ومضى يقول :
ــ يا ملك فرنسا ، وهنري دي مونتمورانسي ، ويا دوق دانجو .. لقد اصبحت اعظم منكم ، وما عليكم الا ان تقفوا في وجهي لتروا ما يكون مصيركم .
« لويزا .. لقد ملكت قلبي .. فاصبحت عبدا لك ، ولكني سيد الملوك » .
واقبل ابوه بعد قليل ليخبره انه اتفق مع عشرين فارسا على حماية المركبة ، فوجده متمالكا لاعصابه ، هادئا ثابت الجنان ، وفي الموعد المعين، ركبت لويزا وامها المركبة التي توجهت نحو باب سانت انطوان ، وقد سار المارشال امام المركبة وبارداليان الاكبر والاصغر حولها ، واثني عشر فارسا من حرس المارشال خلفها .
فلما وصلوا الى الباب ، تقدم احد الضباط واخبرهم ان الخروج من باريس ممنوع .. وقد رفعنا الجسر منذ ساعة .

وعجب المارشال لاقفال الباب في هذه الساعة المبكرة ، لانها كانت اسابعة ، وحسب ان الابواب الاخرى لا تزال مفتوحة ولكنه علم من الضباط انها قد اقفلت جميعها ، وان الخروج من باريس ممنوع .. الا بأمر الملك .

وعندئذ تقرر ان يعود الجميع الى القصر .

وفيما كان بارداليان الكبير يراقب الضباط والحراس ، شاهد جنديا يغادر مركز الحراسة ، فتبعه ، ودعاه الى تناول قدح من الخمرة معه .

وما زال به ، يغريه حتى استطاع اخذ الرسالة التي كان يحملها الى هنري دي موتمورانسي وفيها يقول ضابط الباب ، ان المارشال فرانسوا دي موتمورانسي قد اراد مغادرة المدينة ، وانه شاهد في معيته الشخصين المطلوبين .. بارداليان وابنه .

وادرك بارداليان على الاثر ، ان هنري قد تمكن من حمل الملك على اصدار هذا الامر ، حتى لا يسمح لاخيه بمغادرة العاصمة والاعتصام في قصره في موتمورانسي .

وان هنري والحالة هذه اصبح الحاكم المطلق على ابواب المدينة ، لا يستطيع مغادرتها احد الا بامره .

وكان من اثر هذا ان اصبح من المتعذر مغادرة باريس واقتحام ابوابها .. فأقام الجميع في قصر المارشال فرانسوا ، عدة ايام ، يدرسون فيها موقفهم ، وما يجب ان يعملوا .

وفي هذه الاثناء ، اقبل على القصر جيلوت ابن اخت جيل ، بعد ان قطع هذا اذنيه كما قدمنا ، وطلب من بارداليان قبوله خادما عنده ، لانه يريد الانتقام من هنري دي موتمورانسي ، الذي أمر بقطع اذنيه لوشايته به .

فقبله بارداليان ، دون ان يشك في شيء من امره .

-٢-

السم في الصندوق

احتفل ملك فرنسا شارل التاسع في اللوفر ، بعد عشرين يوما من عودته الى العاصمة ، بخطبة هنري دي نافار على اخته مرغريت ، فارتدى القصر اجمل حلل الزينة ، واجتمع فيه زعماء الكاثوليك والهيكونوت يرقصون ويشربون ، ويتندرون .

وكان شارل التاسع مسرورا لهذه النتيجة ، راضيا عن هذا الاتفاق .

اما امه الملكة كاترين فكانت على خلاف ذلك ، كانت تريد القضاء على زعماء الهيكونوت وهم في باريس حتى تأمن على العرش الفرنسي ، وتطمئن الى ان ولدها الحبيب دوق دانجو سوف يجلس عليه بعد ان تقضي على كل من يزاحمه فيه .

وقد وقفت الملكة تتحدث الى ابنها شارل في احدى قاعات القصر المشرفة على نهر السين ، وهي تنظر الى النار التي اشعلها بعض سكان باريس هنا وهناك في مساء هذه الحفلة الفريدة .

وسأل الملك امه عن هذه النار ، فاجابته :

ـ لا بد انهم يحرقون منزلا يسكنه بعض الهيكونوت .

فاحمر وجه الملك وبان الغضب على وجهه وهدد بارسال الجند لقتال هؤلاء المتعصبين .

ولكن امه ، انذرته انه ان فعل ذلك اشعل الثورة في باريس وعرّض عرشه للخطر ، وان الشعب غاضب لعقد الصلح مع الهيكونوت ، لانه لا يريد صلحا معهم بل حربا تحرقهم وتبيدهم .. وان من يساعدهم لا بد ان يسحق معهم .

وسمع الملك في هذه اللحظة صوت بعض افراد الشعب المحيطين بالقصر يصيحون بحياة الدوق دي كيز وحياة القائد العام ، فالتفت الى امه مذعورا وسألها :

ــ من هو هذا القائد العام ؟

ــ انه الدوق دي كيز .

ــ وما هي القيادة التي يتولاها ؟

ــ قيادة جند الكاثوليك .

ــ ما هذا الكلام يا اماه .. واين هؤلاء الجند ، ومن حشدهم ؟

ــ الا تعلم يا بني ان هؤلاء الجنود هم الشعب كله ، والذين ينكرون الاعتراف بالهيكونوت في البلاد .

وضاق صدر الملك وقال لامه :

ــ اتريدين مني ان اخون كوليني الشيخ الجليل ، وهنري دي نافار الذي عقدت خطبته مع اختي ، اني لن افعل شيئا من هذا .. فافعلوا انتم ما تريدون ، فانا بريء من كل ما تفعلون .

وسرّت كاترين ان نفض الملك يده من المؤامرة التي كانت تديرها وقالت له :

ــ ان هؤلاء الذين تقول انهم يحبونك كانوا في سبيلهم لقتلك وتنصيب هنري دي نافار مكانك .

واصفر وجه الملك مـن الغضب والغيظ ، فنصحته امـه ان يضبط عواطفه ، وان لا يدع احدا يحس بقلقه •

ثـم غادرته واجتمعت الى موروفر ، وطلبت منه تـدبير مؤامرة على الاميرال كوليني بحيث يموت قضاء وقدرا ، كأن يسقط حجر على رأسه، او ما شاكل ذلك حتى لا يشك احد في انه ذهب ضحية مكيدة او مؤامرة •• وسيكافىء الرجل الذي يقوم بهذا العمل خير مكافأة لانقاذه حيـاة الملـك •

فقال مورفر :

ــ سوف اكلف احد اصدقائي بهذه المهمة •

ولما سألته الملكة عن الطريقة التي سيتولى بها صديقه قتل الاميرال • قـال :

ــ من المعروف ان الاميرال يغادر اللوفر في ساعة معينة ، فاذا كمن له صديقي في منزل على الطريق واطلق عليه النار من النافذة ، ثم هرب ، فلن يعرفه احد ، ولن يعثر عليه انسان •

ووافقت الملكة على الخطة ، واعطت (مورفر) حوالة على الخزينـة بخمسة وعشرين الف فرنك ، على ان يدفع مثلها للصديق بعد تنفيذ المهمة •• وان يخبره في الوقت نفسه بعد نجاحه انها بحاجة اليه ايضا •

سألها : ضد من يا سيدتي •

ــ ضد رجلين من اعدائي واعداء الملك ، ولا سيما اصغرهما ، فلولاه لماتت ملكة نافار ، ولما اضطررنا الى عقد الصلح ، ولا كانت خطبة ابني على هنري دي نافار ، فاذا تمكنت من قتلهما اعطيتك مكافأة عظيمـة ، وجعلتك كونتا •• بل ازيدك مائة الف فرنك عن كل واحد منهما •

وفطن مورفر عندئذ الى ان الرجلين هما بادراليان وابنه ، فثـارت عواطف الغضب في نفسه ، وقال :

ــ لقد عرفتهما .. فهما بارداليان وابنه . وهما الآن في قصر فرانسوا دي مونتمورانسي ، وازيدك اني لا اريد مكافأة على قتلهما ، وانا مستعد للتضحية بحياتي للقبض عليهما وخنقهما بيدي هاتين .

ــ لا بد انهما اساءا اليك اساءة عظيمة .

فاشار مورفر الى خده . الذي اصيب بسيف بارداليان الابن وقال :

ــ لقد قتلت حتى الآن ثلاثة رجال لانهم ضحكوا لهذا الاثر في خدي.

وغادر مورفر الملكة الى الصالة الكبرى حيث اجتمع الى الدوق دي كيز ، واخبره بما جرى بينه وبين الملكة فقال له هذا :

ــ لا تفعل شيئاً قبل ان اصدر اليك امري .. ومتى فعلت فجرب ان تجرح الاميرال جرحا بالغا ولا تقتله حالا .

★ ★ ★

واما الملكة كاترين فقد استقبلت بعد ذهاب مورفر ، الكـونت دي ماريلياك وسألته عن الصندوق الذي اهدته له ، فاجابها :

ــ انه صندوق نسائي من افخر ما وقعت عليه العين ، وقد استخدمته جلالة ملكة نافار لوضع قفازها فيه .

فتنهدت الملكة لتخفي فرحها ، ثم تحدثت اليه بشأن حبه لاليس دي ليكس ، وكيف انها عرفت به ، وان سبب تردد ملكة نافار بقبول زواجه بها ، كونها لقيطـة لا تعرف لها ابا ولا اما ، وهي من عائلـة دي ليكس بالتبني .

وقد ضربت الملكـة على الوتر الحساس في الشاب ، فقد كان هـو بدوره لقيطاً ، فارادت ان يحنو على فتاته ، رغم معارضة ملكة النافـار ، التي كانت تعرف سر الفتاة ، وتعرف انها ليست لقيطة ، وانما هي امرأة تعرفت على اكثر من رجل واحد ، ثم اصبحت جاسوسة في المدة الاخيـرة

لكاترين ، وحاولت بامر هذه الملكة القضاء على ملكة نافار عند دخولها سرا الى باريس كما وصفنا في كتاب سابق •

وفرح ديودات بهذا الخبر فرحا عظيما وسأل الملكة فيما اذا كانت توافق على عقد زواجه من اليس فوافقت ، واختارت هي الكنيسة التي سيعقد فيها الزواج ، وهي كنيسة سانت جرمين ، والكاهن الذي سيقوم بعقد القران وهو الكاهن (بانيكارولا) •

واما الموعد فسيكون اليوم التالي لزواج مرغريت ابنة الملكة ، والوقت عند انتصاف الليل •

وقبل ان ينصرف لشأنه ، سألته ان يقسم بان لا يتحدث لاحد بما جرى بينهما فاقسم على ذلك ، وودعها وهو يحسب نفسه اسعد البشر •

ولما غادر ديودات الغرفة ، فتحت الملكة كاترين باب غرفة اخرى ودخلت اليها ، فاذا باليس دي ليكس فيها فقالت لها :

ــ يجب ان تعلمي انه يحبك حب العبادة ، وعليك ان تعلمي ايضا انك لست ابنة الكونت دي ليكس ، وانما انت لقيطة ، تبناك الكونت ، وانك لا تعرفين اباك ولا امك ، وان هذا هو السر الذي تعرفه ملكة نافار عنك ، والذي جعلك تضطربين دائما وابدا حين تجتمعين اليه •

فقالت اليس :

ــ نعم يا سيدتي •

ــ ولتعلمي ان احدا لا يعرف سرك سواي •• وملكة نافار •

« ولسوف تتزوجيه وتسافرين معه الى الخارج •• حيث تعيشين معه بسعادة وهناء ، وكل هذا سوف سيتم تحت شرط واحد ، وهو الامتثال لاوامري ، فاذا ترددت وتراجعت سحقتك وقتلتك » •

ــ سأمتثل يا سيدتي لما تأمرين شرط ان ينجو •

ـ اذهبي فاني اريد له الخير ، واحذري الخيانة .

ومضت (اليس) الى المنزل في شارع لاهاش ، وهي تظن نفسها في حلم من الاحلام .

لقد كانت تعرف ان ديودات ليس غير ابن كاترين ، وقد سمعت منه ذلك من خلف الباب حين كان يتحدث الى ملكة نافار بسره .. فهل يجب ان تحدثه بهذا السر ، وهل تعلم كاترين نفسها انه ولدها ؟

لقد كان عليها ان تحاول الاستماع الى حديثهما من خلف الباب ، ولكنها لم تجرأ خوفا من الملكة .. واخيرا استقر رأيها على ان تلوذ بالصمت فذلك خير وابقى .

★ ★ ★

ذهب ديودات بعد ان غادر كاترين الى صالات اللوفر الواسعة يبحث عن ملكة نافار ، وفيما كان يمر في هذه الصالات كان يجد بعض الكاثوليك قد تجمعوا حول احد الهيكونوت يلاعبونه ويهزأون به ، دون ان يفطن هؤلاء لما يبيته هؤلاء لهم من شر وبلاء .

وسمع الجميع في هذه اللحظة اصواتا تقول :

ـ اسرعوا بدعوة الطبيب فان ملكة النافار مريضة .

وكان السم الذي وضعته كاترين في الصندوقة الذهبية التي اهدتها لديودات ، ووضعها هذا تحت تصرف ملكة نافار ، فوضعت فيها قفازها ، قد تسرب من الصندوقة الى القفاز ، واخذ يفعل مفعوله .

وكان ان اقبل ديودات عليها في هذه اللحظة ، وحاول تقبيل يدها ، ولكن الملكة جذبتها منه ، ووضعتها على عنقها ، والعرق يتصبب من وجهها ، وقد جحظت عيناها ، وتبدل صوتها ، كأنما هي تختنق .

فصاح ديودات يأمر من حوله بفتح النوافذ ، ففعلوا •

واقبلت كاترين تتظاهر بالحزن الشديد وتقول :

ــ ماذا اصاب ابنة عمنا العزيزة ؟

واقبل الطبيب في هذه اللحظة ، وبعد ان فحص الملكة ، التفت الى ابنها هنري دي نافار وقال له :

ــ ان امك يا سيدي مشرفة على الموت •

فجثا الملك على ركبته واخذ يبكي ، واستند ديودات الى سارية قريبة حتى لا يسقط •

وانتشر الخبر في اللوفر ، فصعق الهيكونوت ، واسرع الزعماء يقفون حول الملكة •

وتلقى الملك شارل الخبر بوجوم ، ونظر الى امه ، فاذا هي توصيه بتمالك اعصابه ، فلم يسعه الا الامتثال ، وهو الضعيف العاجز •

واصدر امره بانتهاء الحفلة •

وفي الليلة نفسها ماتت ملكة نافار •

★ ★ ★

ذهب (جيلوت) كما قدمنا وبعد ان فقد اذنيه الى قصر المارشال فرانسوا دي موتمورانسي ، وطلب من بارداليان ، العمل عنده مدعيا ان هنري دي موتمورانسي قطع اذنيه ، وطرده من العمل لخيانته له •• واخباره بارداليان بمكان الاسيرتين •

فقال له بارداليان وهو يستمع الى حديثه :

ــ حسنا يا جيلوت ، سوف ابقيك عندي ، وسابحث في الطريقة التي يمكن ان تخدمنا بها •

« واحب ان انذرك بأني اذا وجدتك تسترق السمع من خلف الابواب. او تحاول خياتتي ، فاني طبعا لن اقطع اذنيك بعد ان سبقني غيري الى ذلك . ولكني سأقطع لسانك » .

وارتعش جيليوت حين سمع هذا التهديد .

وقال :

ــ ما الذي تجدونه من اللذة في تشويه وجهي ؟

ــ هذه هي طريقتي .. وهي طريقة خالك ايضا ، ولتعلم انك اذا خنتني سوف اقطع لسانك ، وآمر الطباخ بقليه بالزبدة ، ثم اكرهك على اكله .

وبدأ الخوف يساور جيلوت ، حتى لقد فكر في خيانة خاله .

ثم تمالك اعصابه ولاذ بالصمت .

سأله بارداليان عن الطريقة التي يمكن ان يخدمه بها .

فقال له :

ــ اني اعلم ان الدوق دامفيل يريد قتلك اذا تمكن منك ، وستفعل انت مثل ذلك اذا ظفرت به ، ولهذا فخير سبيل لخدمتك ، هو ان انذرك بما سوف يفعله قبل وقوعه .

ــ وكيف تتمكن من الوصول الى ذلك ، وقد طردك من القصر .

ــ ان لي في القصر خادمة احبها وتحبني وتدعى جانيت ، وستقوم بنقل اخبار القصر لي .

ووافق بارداليان ، وقام جيلوت بعد ان غادره بارداليان وشأنه ، بفحص القصر ، والتأكد من عدد جنوده .

وفي صباح اليوم التالي ذهب الى خاله ، وقد ادعى امام بارداليان بانه ذاهب للاجتماع بالخادمة التي تحبه ويحبها ، فلما اجتمع اليه وصف له حامية القصر ، وعدد الجنود فيه .

وكيف ان بارداليان وابنه يعيشان في هذا القصر ايضا ، وهما يعادلان كل الحامية .

سأله خاله : اين يقيم الفارسان ، واين يقيم المارشال فرانسوا ؟

وبعد ان عرف خاله منه كل ما يريد معرفته ، صرفه على ان يزوره في الاسبوع مرتين او اكثر ، وفي الطريق قرر (جيلوت) ان يخون الجانبين فيكسب من الطرفين ، خصوصا بعد ان عرف بارداليان بذهابه الى قصر هنري دي مونتمورانسي ، وسيسأله عند عودته عن اخبار القصر بالتأكيد، ويجب عليه ان يقول له شيئا يسره ويرضيه .

★ ★ ★

لقد احس المركيز بانيكارولا ، بعد ان اصبح راهبا بسبب فشله في حبه ، عندما اجتمع الى (اليس) من جديد ، انه لا يزال يحبها حبا هو اقرب الى العبادة ، وانه لا يستطيع العيش بدونها ..

وقد عرض عليها اعادة ولدها اليها كما قدمنا ، ومغادرة باريس الى ايطاليا حيث يعيشان حياة سعيدة وارفة ، بسبب الثروة التي كان ينعم بها المركيز .

ولكن (اليس) رفضت ، فقد كان حبها للكونت دي ماريلياك قد ملك عليها كل عواطفها ، فعاد الراهب الى الدير حزينا يائسا ، حتى زارته الملكة كاترين متنكرة ذات يوم مع احدى وصيفاتها .

وتحدثت اليه عن حالته الحاضرة ويأسه من الحياة ، وكيف ان (اليس) سوف تتزوج ماريلياك ، فاهتز وتأثر ولسعته الغيرة حين علم بقرب هذا الزواج ، وعندئذ اعلمته الملكة ان (اليس) قد تعود اليه والى حبه ، اذا عاد الى القاء عظاته ضد الهيكونوت ، وضد الاميرال كوليني ، والبرنس

دي كونده ، وماريلياك ، فوافق الراهب على ذلك املا في عودة حبيبتــه اليه •• وختمت كاترين حديثها •

ــ قم بما طلبته منك وعليّ الباقي •• واعلم ان القنبلة لم يعد ينقصها غير خطبك المثيرة لتنفجر •

وفي اليوم التالي القى بانيكاردلا خطبة في جمع من الكهنة يزيد عددهم على ثلاثة الاف كاهن ، مع عدد قليل من المدنيين بينهم الدوق دي كيز ، والدوق دي تافان، والدوق هنري دي مونتمورانسي ، وكيرس الجوهري، وكرفيه الكتبي ، وبيزوا الجزار ••• وهم الثلاثة الذين تزعموا الشعب في المذبحة ضد الهيكونوت •

كما حضرها جمع من الناس كانوا يقفون خلف باب الكنيسة المقفل •

ولما انتهى الراهب من خطبته ثار الناس ، والرهبان وتحمسوا وغادروا الكنيسة •

واخيرا نهضت امرأة كانت جالسة في اوج لا يراها فيه احــد مــن الحضور ، فلما وصلت الى الباب التف حولها بعض النبلاء ، وساروا بها في مركبة الى اللوفر •

وكانت لما فرغ الراهب من خطبته ، قد نظرت من مكانها الى حيــث يقف الدوق دي كيز وبعض انصاره وقالت وهي تتقد حقدا وغضبا :

ــ يا آل لورين افتكوا بالهيكونوت ، فسيوجد بينهم من يحاربكــم بمثل ناركم ، فانتهي من اعدائي دفعة واحدة •

« اما الملك فلا فائدة من قتله ، لان مرضه سوف يقتلــه ، وسيجلس على العرش بعده ولدي العزيز هنري ، ويملك سعيدا تحت رعايــة امه ومراقبتها » •

وفي اليوم التالي أذيعت خطبة بانيكارولا في جميع الكنائس ، فكثر الوعيد والتهديد ، والمظاهرات •

وقلق الهيكونوت لهذه المظاهرات العدائية ، وخشوا ان يكون هناك شيء خلف الاكمة ، ولكن الملك مضى في اكرامهم ودعوتهم الى اللوفر ، متحببا اليهم متوددا .. فما لبثوا ان هدأ روعهم واخذوا يستعدون لزواج هنري دي نافار بالاميرة مرغريت شقيقة الملك ، وهم يقولون في انفسهم :

ــ لا بد ان تكون هذه نزاوات شعبية يقوم بها بعض المتطرفين ، ولا شأن للمسؤولين في باريس بها .

– ٣ –

القبض على باردالیان وابنه

لقد كان الموقف في فرنسا في هـذه الفترة ، مـن الزمن ، يدعو الى الحذر وينذر بشر المصائب والشرور .

وكانت الملكة كاترين تعمل المستحيل لاجلاس ابنها هنري الـدوق دانجو على عرش فرنسا ، مكان اخيه شارل التاسع ، الذي كان مريضاً ، والذي كانت الملكة اي امه .. تتوقع موته في وقت قريب .

ولاجل المحافظة على عرش ولدها هنري ، قررت القضاء على زعمـاء الهيكونوت الذين كانت تتهمهم بانهم يسعون ليضعوا على عرش فرنسا ملكهم هنري دي نافار ، بزعامة امه ملكة نافار ، التي استطاعت الملكـة كاترين قتلها بالسم ، كما قدمنا في فصل سابق .

ولما تمكنت كاترين مـن جلب كل زعماء الهيكـونوت الـى باريس لحضور حفلات زفاف ملكهم على شقيقة الملـك شارل التاسع ، قررت الافادة من هذه الفرصة والقضاء عليهم جميعاً باثارة الشعب ضدهـم . فينجو العرش والحالة هذه ، من كل خطر قريب او بعيد .

وكانت تعلم في الوقت نفسه ان الـدوق دي كيز ، لا يضمر للعرش

اخلاصا ، الا بقدر ما يقدمه هذا العرش له من فائدة وسلطان •

فتجاهلت اغراضه ودفعته لمحاربة الهيكونوت ، ولتزعم الحملة ضدهم ، لتضرب خصومها بعضهم ببعض ، فتخلص منهم جميعا •

حتى اذا خرج الدوق دي كيز من هذه المعركة اخيرا ، خرج منها ضعيفا ، فتقبض عليه بدوره •

ولا بد في الوقت نفسه ان يموت ديودات ابنها في المعركة ، فتنجو من عاره ، وتنتهي منه •

واما دي كيز فقد قبل تمثيل الدور الذي عهد له به ، لانه وجد انه ما دام الشعب الفرنسي ينقم على الهيكونوت ، فلماذا لا يضع نفسه في صفوف هذا الشعب ، ويتزعم الثورة ضد هذه الجماعة ، حتى اذا نجح في ابادتهم ، اصبح قائد الشعب وزعيمه ، واتهم الملك بانه كان يمالىء الهيكونوت ويعطف عليهم ، فيثير الشعب ضده ، ويزحف على اللوفر فيحتله ، وينصب نفسه ملكا على فرنسا •

وكان ان اخذ يستميل اليه بعض النبلاء ، لتحقيق اغراضه هذه ، كهنري دي مونتمورانسي والمارشال تافان ، وحاكم الباستيل ، الذي كان سيكلف بسجن ملك فرنسا عند خلعه عن عرشه •

ومتى تم له ذلك اوقف المذبحة ، فيرضي الطرفين المتنازعين دون ان يخسر شيئا •

وكان هنري دي مونتمورانسي قد جلب من مقاطعته قوة تقدر بسبعة الاف جندي ، لهذه الغاية •

وكان يطمح ان يحل محل دي كيز على عرش فرنسا ، وان يتمكن من قتل اخيه ، واسترجاع جان ، لعلها تقبل به بعد مقتل زوجها ، ولو علم انها جنت ، لبدّل فكره بالتأكيد •

واما فرانسوا شقيقه فلم يكن يعلم طبعا ، بما يدبره له شقيقه .

وكان ينتظر الفرصة السانحة ، للخروج بزوجته وابنته من باريس ، ليضعهما في حصنه ، حيث يكونان فيه اكثر اطمئنانا وسعادة .

واما بارداليان الصغير ، فقد كان سعيدا بعد ان وثق من حب لويزا له.

ولكنه لم يكن مطمئنا الى ان والدها سوف يزوجه بها ، بعد ان سمعه يقول ، انه سيزوجها من الكونت دي مارجنسي .

واما (جان) ، فقد كانت اسعد الجميع واهنأ الجميع ، لان جنونها جعلها لا تشعر بالمخاطر حولها .. فكانت والحالة هذه هادئة ناعمة البال باسمة ساكتة في اكثر الاحيان .

وكان فرانسوا دي موتتمورانسي ، قد خسر ثقة الطرفين المتنازعين .. فزعماء الكاثوليك كانوا يعتقدون انه من مناصري الهيكونوت ، وهؤلاء اجتنبوه حين شاهدوه يقف على الحياد ، ولا يريد ان يضع اصبعه في هذه المشاكل الداخلية ، التي سوف تعصف بفرنسا ، وتؤخرها عن التقدم والعمران .

★ ★ ★

وكان بارداليان الكبير في هذه الاثناء ، وفي ليلة من ليالي آب الحارة ، قد جلس يفكر في الخبر الذي نقله له جيلوت ، من ان هنري دي موتتمورانسي سوف يكون وحده في قصره هذه الليلة ، فقرر الذهاب اليه والاجتماع به .

وفكر ان يخبر ولده بغرضه ، ثم عدل عن ذلك وغادر القصر فلما بلغ قصر هنري دي موتتمورانسي ، وجده مظلما مقفل الابواب والنوافذ .

فدار حول القصر ، فلما لم يجد احـدا تسلق السور ووثب منه الـى الحديقة •

فلما وصل الى الباب الداخلي فتحه بسكينه ، ثم مضى الى الغرفـة التي يقيم فيها هنري دي موتتمورانسي ، فلما حاول فتح بابها ، انفتـح لساعته ، وظهر على عتبته هنري نفسه •• وهو يحمل مصباحا في يده • •

وذعر باردالیان رغم جرأته العظيمة •

لقد كان ينتظر ان يجد المارشال وحده ، مطمئنا هادئا ، فاذا به يجده في انتظاره •

ودار بين الاثنين حديث طويل ••

اعلن فيه هنري انه كان ينتظر باردالیان ، لان الفيكونت اسبرمونت كان يراقب قصر فرانسوا دي موتتمورانسي وقد شاهده يغادره خفيـة فتبعه حتى رآه يتسلق سور هذا القصر •

ثم فتح له ابواب غرفته فاذا خلفها جمع من الحراس يحملون السلاح• فقال باردالیان عندئذ :

ـ لقد كنت اتوقع ان اجدك وحدك فابارزك بعد المتاعب التي وضعتها في سبيلي وسبيل ولدي •• وما دام هناك شهود خلف الابواب ، فقـد سرني ان الناس سيقولون بعد المعركة ان هنري دي موتتمورانسي قـد قتل قتلا بمبارزة شريفة ، وليس حيلة ولا غدرا •

واستشعر هنري بالاحترام نحو هذا الفارس الذي لا يهاب الموت ، واخذ يعاتبه على مواقفه منه ، وخيانته له ، فاعتذر باردالیان ، بانـه لم يخنه ، ولم يعده بالمساعدة على قتل امرأة ، ولهذا اعاد الطفلة الى امها •

ولو انه طلب منه قتل ملك فرنسا ، لما تردد ولا اعتذر ، وامـا قتل النساء فهذا ليس من شأنه •

وختم حديثه قائلا :

ـ ولو اني اردت خيانتك لذهبت الى ملك فرنسا وقلت له : « ان هنري دي مونتمورانسي يريد قتلك بالاتفاق مع الدوق دي كيز ، ولكني لم افعل » .

وقد عرف هنري من حديثه ان بارداليان لم يحدث شقيقه فرانسوا بخيانته هذه للملك .

ولكن ولده يعرف القصة طبعا ، وهو قد يذهب الى الملك اذا عرف ان والده اسير عند هنري او انه قتله .

وعندئذ عرض هنري على بارداليان ان يغادر باريس هو وابنه ، مقابل مبلغ من المال ، وان يدعو ابنه الى القصر للاتفاق معه على مغادرة باريس.

واجابه بارداليان ان ابنه لن يفعل ، وانه سيشك بهنري ولا يـأمن جانبه ، ولا يصدق مواعيده .

ولهذا فلا فائدة ترجى من الكتابة اليه ... ودعوته الى القصر .

واهتز هنري لما سمع هذا الجواب ، وصاح بحراسه ليقبضوا عليه .

فجرد عندئذ بارداليان خنجره ، ووثب على هنري وهو يقول :

ـ سوف تموت قبلي ايها القذر .

ولكن هنري القى بنفسه ارضا ، وسقط بارداليان فوقه ، فانقض عليه الحراس واوثقوه ، وامر هنري بارساله الى سجن الباستيل ، ريثما يفكر في مصيره .

وكانت هذه اول خيانات (جيلوت) .

وكان بارداليان الاصغر في هذه الاثناء يزور صديقه ديودات في كـل يوم ، فيقيم معه ساعات يتحدثان بحبهما ، وقد ذهب اليه في يوم من ايام الآحاد لزيارته كالعادة ، فوجده فرحا سعيدا ، وعرف انه سيتزوج الليـلة من (اليس) . بعد ان تم زواج هنري دي نافار ، بمرغريت شقيقة ملـك فرنسا .

وان حفلة الزفاف ستعقد في كنيسة سانت جرمان عند انتصاف الليل، وستتولى ملكة فرنسا بنفسها الاشراف على هذا الزواج •

ولكن بارداليان احس بانقباض خفي يتملكه لهذا الخبر ، ولكنه كتم هواجسه عن صديقه ، وقرر ان لا يفارق ديودات في اثناء الزواج •

حتى اذا حدث ما ليس بالحسبان ، دافع عنه ، ورد كيد اعدائه •

ولحظ ديودات انكماش بارداليان فسأله عن شأنه •

فأخبره ان والده غادر القصر منذ ثلاثة ايام ، ولم يعد اليه حتى الآن• فطمأنه ديودات ، وقال له :

ــ ان والدك يستطيع الدفاع عن نفسه ، فلا خوف عليه •

ثم دعاه الى قدح من الخمرة يشربانه في حانة قريبة •

ووافق بارداليان وهو يقول :

ــ ان ابي يسير على خطة تخالف سياستي ، واخشى ان يفسد غيابه خطتي هذه •

ــ ما هي خطتك ؟

ــ لقد استطعت اغراء احد الضباط ، الذي يتولون حراسة احد ابواب باريس ، يوم الثلاثاء القادم ، وقد وعدني ان يدافع قليلا ثم يتراجع ويتركنا نغادر باريس •• شرط ان يكون هجومنا شديدا قويا •

« واني اعتمد على مساعدتك •• وسيكون اللقاء في الساعة السابعة مساء » •

فقال ديودات :

ــ حسنا ، سأحضر مع عشرين من رجالنا •

وشاهد الصديقان الناس يحتشدون حول احد الاديرة ، ثم علموا ان عجيبة حدثت فيه •

فوقفوا ينظرون الى الجمع المحتشد ، وعندئذ سمعوا صوتا يقول :

ـ هوذا اثنان منهم •

وكان الناس قد ركعوا عند مرور الرهبان ومعهم الحلة المقدسة ، فلم يبق واقفا غيرهما ، فلما صاح الصوت : هؤلاء منهم .. احـاط الشعب بهم وهم يصيحون ؟

ـ ليست الهيكونوت •

كان الصوت صوت (مورفر) ، وقد عرفه بارداليان ، ونظر الشابان الواحد للآخر ، وتأكدا من الموت ، وجردا سيفيهما •

وعندئذ ظهر احد الرهبان •

وصاح الناس :

ـ « هذا هو القديس » •

وكان الراهب القديس (لوبين) صديق بارداليان ، فلما شاهده اسرع اليه يعانقه ، فتفرق الناس من حول الرجلين ، ورأى بارداليان زاوية تحت الدير •

فقال لصديقه :

ـ هيا بنا نثب اليها فاننا نستطيع الدفاع منها •

واندفعا الى الزاوية يفرقان الناس بسيفيهما ، فلما وصل ماريليـاك اليها ، وجد نفسه وحده فيها •

فحاول ان يعود ليبحث عن بارداليان ، فامتدت اليه الايدي تمسكه ، وتحمله الى الدير •

وكان بارداليان حين تبع صديقه الى الزاوية ، قد وجد امامه سدا من الناس بقيادة مورفر ورفاقه ، فما زال يدافع عن نفسه ، حتى تغلب عليـه الشعب •

وقيده (مورفر) بحبل متين وامر بادخاله الى الدير ، بعد ان جرح نحو عشرين شخصا ، كما اصيب هو ايضا ببعض الجراح •

ولما وصل موروفر الى الدير تحدث الى رئيسه ، ثم ذهب فاطلق سراح ماريلياك •

فدعاه هذا الى المبارزة ، فاجابه الى ذلك غدا صباحا في مروج الرعاة، وقد اعترض (مورفر) على هذه الدعوة للمبارزة ، بعد ان انقذه من ايدي الشعب ، ولولاه لفتكوا به •• وانه انما انقذه لان الملكة لا تريد له الموت•

وسأله ماريلياك عن بارداليان ، فأجابه :

ــ انه قد ارتكب جريمة العصيان ، واهان الملك ، فقبض عليه •

ــ ومن الذي امرك بالقبض عليه ؟

ــ جلالة الملكة كاترين •

وغادر مورفر الغرفة بعد ان ترك البـــاب مفتوحا ، تاركا ماريليـــاك وحده يفكر •

وقال هذا لنفسه :

ــ سأرى فيما اذا كانت الملكة تعطف عليّ حقا •• لاني سأذهب اليها لاطلب منها اطلاق سراح بارداليان •

وغادر الدير متوجها نحو اللوفر •

ولكن (مورفر) سبقه اليه ، وكانت كاترين بانتظاره •• لينقل اليهـــا خبر القبض على بارداليان الابن ، وارساله الى سجن الباستيل •

وكانت الملكة في هذه اللحظة تكتب بعض الرسائل ، فلما فرغت منها، قرعت جرسا ، فاقبل احد الحراس ، فامرته بتوزيعها على سعاة البريد الذين كانوا ينتظرون في الردهة ليركبوا جيادهم ، وليغادروا باريس ، ينقلون هذه الرسائل الى اصحابها •

وقالت الملكة لما فرغت من ذلك لمورفر :

ــ اريد ان تنقل الى صديقك الدوق دي كيز ما رأيت ، وهـــو اني ارسلت الى حكام الاقاليم ليبعثوا بكل ما لديهم من الجنود الى باريس . لمعاقبة هؤلاء الاغرار ، الذين يتآمرون على الملك •

« قل هذا لصديقك الدوق دي كيز ، وليعلم ان ستين الف جنـدي سيكونون في العاصمة بعد ايام .. واما انت فما تريد ان اصنع بك ؟ »

ومادت الارض تحت قدمي مورفر .. واحس بحبل الجلاد يلتـف حول عنقه .. وركع عند قدمي الملكة وهو يرتجف من الخوف والذعر .

امرته الملكة ان ينهض .

وقـالت :

— لن ينقذك غير الصدق ،فحدثني الى اين بلغت مؤامرة الدوق دي كيز ؟

وضبط (مورفر) اعصابه ، كي لا يسقط ارضا ، وهتف يقول :

— اقسم لك ان لا علاقة لي بالمؤامرة والمتآمرين .

فصاحت به باحتقار :

— ومن اتهمك بالتآمر .. ان من يفعل هذا يجب ان يكـون شيئـا مذكـورا ، ولكن لا بد ان تكون قـد سمعت شيئا عن هـذه المؤامرة ، فحدثني بما سمعته .

فقال مورفر وقد صعق لهذا الجواب :

— يقولون يا سيدتي ان ملك فرنسا يتساهل مع الهيكونوت ، ولمـا كانت عامة الشعب في باريس تنقم عليهم ، فقد رأى الدوق دي كيز الافادة من غضبة الشعب هذه ، ليكون قائد الشعب ضد اعداء الدين .

— وبعد ذلك ؟

— هذا كل ما سمعته يا سيدتي .

— قل كل ما سمعته .

فقـال :

— وحين ينتصر الدوق دي كيز في باريس ، ويصبح قائد الشعب — وهذا افتراض مني — لانى لم اسمعه من احد ، فانه سوف يحاول الوصول الى عرش جلالة الملك .

وقالت الملكة في نفسها :

ـ لا بد انه لا يعلم اكثر مما قاله •

وكتبت له ورقة بمبلغ خمسين الف فرنك ، فسر بها ، وسر اكثر من ذلك بنجاته من عذاب هذه الملكة القوية •

ومضى يشكر الملكة ويسألها ما تريد ان يفعل بباردالیان الاصغر ؟

فقالت له :

ـ ضعه مع والده في سجن الباستيل ، لاني عامت من هنري دي موتتمورانسي انه قبض على الاب ايضا •

سألها ان تسمح له باستنطاقهما وتعذيبهما ، فوافقت ، وعينت له الساعة العاشرة من صباح يوم السبت الواقع في الثالث من شهر آب ، موعدا لذلك •

فقال مورفر في نفسه :

ـ اذاً لا بد من الانتظار خمسة ايام اخرى •• ولكن لا بأس •• لقد صبرت طويلا حتى الآن •

ووعدته الملكة اخيرا ، ان تتركه يفعل بالرجلين ما يشاء ، شرط ان يقتل الاميرال كوليني ، من الآن الى نهار السبت • كما وعدها ان يفعل •

فقال :

ـ سيكون لك ما تريدين يا سيدتي •

فأمرته عندئذ بالانصراف وهي تقول لنفسها :

ـ لقد قضي على كولیني •• ولن ینجو من الموت بالتأكيد •

وفي هذه اللحظة وصل ديودات الى القصر وطلب مقابلة الملكة ، فلما مثل امامها ، ركع على قدميها وطلب اطلاق سراح صديقه •

فوعدته الملكة ان تفعل غدا الثلاثاء ، بعد ان انكرت ان تكون لها علاقة بالقبض عليه ، وان الملك هو الذي امر بذلك ، كما وعدته ان تحضره الى اللوفر لتسأله وتستنطقه •

وكان بارداليان في هذه الاثناء قد نقل الى الغرفة التي كان فيها ابوه في سجن الباستيل .

فقص كل منهما على الآخر اخباره حتى ساعة القبض عليه ، وقد ايقنا ان لا سبيل الى الفرار من هذا السجن ، وان الموت سيكون نصيبهما بالتأكيد .

واخذ بارداليان الصغير يبكي في هذه الاثناء .

فقال له ابوه :

ـ لماذا تبكي .. لعلك تذكرت (لويزا) ؟

ـ كلا .. ان فراقها لا يبكيني بعد ان ايقنت من حبها ، ولكني ابكي صديقا سوف تقتله امه ، وهو يحسب انها تحبه .

وكان هذا الصديق ديودات طبعا .

– ٤ –

مكائد كاترين

اخذت اجراس الكنائس تقرع في الساعة الثامنة من صباح الاثنين الواقع في ١٨ آب سنة ١٥٧٢ في باريس خصوصا في كنيسة نوتردام ، فيما كانت الجموع المسلحة تتوجه نحو الكنيسة وهم يصيحون .. بحياة الدوق دي كيز .

وبعد قليل دوت المدافع من قصر اللوفر ايذانا بخروج الموكب الملكي منه .

كان هذا اليوم هو موعد زفاف ملك نافار على مرغريت شقيقة ملك فرنسا .

ولما وصل الموكب الى الكنيسة دخل اليها من رجال الهيكونوت الاميرال كوليني ، والبرنس دي كونديه ، والكونت ماريلياك .

وقد دخل كوليني الى الكنيسة بدعوة من الملك نفسه ، اما البرنس دي كونديه ، فقد فعل لأن ملكة النافار اوصته قبل موتها ان لا يفارق ولدها ابدا .

واما ماريلياك فلانه كان ينتظر ان يشاهد (اليس) .. بعد ان جعلتها الملكة من نساء بلاطها .

فيما وقف بقية رجالات الهيكونوت وعددهم سبعمائة على باب الكنيسة يستمعون الى هتافات الشعب ضدهم .

والتفتت كاترين وهي تتظاهر بقراءة كتاب الصلوات ، فشاهدت (سالفاني) مندوب رومية قريبا منها ، فاشارت اليه ليدنو منها ففعل ، فسألته متى يغادر باريس الى رومه ؟

فقال :

ــ اني مسافر اليوم الى رومه . فماذا اقول لهم هناك .. هل اقول لهم ان ملك فرنسا قد عقد الصلح مع الهيكونوت وسالمهم .. اهذا ما تريدين ان اقوله لهم ؟

فقالت :

ــ كلا .. قل لهم ان الاميرال كوليني قد مات .

فارتعش سالفاني وقال :

ــ ولكني اراه بجانب ملك فرنسا .

فقالت :

ــ انك ستصل رومه بعد عشرة ايام ، وحين تصل اليها يكون الاميرال قد مات .. كما لن يبقى في فرنسا احد من الهيكونوت .

وعاد سالفاني الى مكانه وقد اصفر وجهه لهول ما سمع .

وقد لحظت العروس مرغريت حديث امها مع مندوب (رومه) فبان القلق على وجهها وقالت لزوجها هنري دي نافار :

ــ هل شاهدت امي تتحدث مع سالفاني ؟

ــ لا .

ــ اذاً فاعلم ان الحالة لا ترضيني ، والافضل ان لا تفارقني ابدا .

ــ هل انت خائفة .. اني لا اشم غير رائحة البخور .

فقال :

ــ اما انا فاني اشم رائحة البارود •

فقال لها بعدما نظر اليها مليا :

ــ اني اؤمن باخلاصك لي •• وقد بت قلقا مما اشاهده حولي •• فهل استطيع الاعتماد عليك ؟

فقــالت :

ــ نعم •• ولهذا حذرتك ان لا تفارقني لحظة بعد اليوم •• ما زلنــا في باريس طبعا ، ومتى خرجنا منها فسأترك لك حريتك ليلا ونهارا •

فقــال :

ــ انت يا سيدتي من الطف النساء ، وما زلت قد تفضلت بحمايتي فلن اخاف شيئا •

وبعد ان انتهى الكاهن من عقد زواجهما ، عاد المركب الى اللــوفر حيث بدأت الحفلة الكبرى •

ولما تفرق الناس جماعات ، ذهبت مرغريت بزوجها هنري الى شقتها الخاصة في اللوفر ، ودخلت به الى غرفة فيها •

وقالت له :

ــ هذه هي غرفتي الخاصة ، وقد وضعت فيها سريرين واحد لــك وآخر لي •• وما دمت فيهــا فانا المسؤولة عنــك ، ولن يجرأ احــد على الدخول اليها •

فاصفر وجه هنري •

وقــال :

ــ حدثيني بما تعلمين •• اتظنين انهم يجرأون ••؟

ــ لا ادري •• الذي اعلمه انك ستكون في امان في غرفتي •• فــلا تنسى ذلك •

وعاد الاثنان الى القاعات الكبيرة ، حيث كانت تقوم الحفلة، ومرغريت تقول في نفسها :

ــ انه بين مصيرين •• اما ان يحصل على طعنة خنجر •• او يصل الى عرش فرنسا •

★ ★ ★

كانت جماهير الشعب الباريسي قد تجمهرت حول اللوفر وهم يصيحون :

ــ ليمت الهيكونوت •

ولكن الامطار الشديدة التي هطلت ، فرضت على الكثيرين منهم العودة الى منازلهم ، فلم يبق منهم غير ثلاثة آلاف ، كانوا اشدهم تحمسا وتعصبا •

وكان زعماء الهيكونوت الذين حضروا الحفلة يسمعون هذه الصيحات العدائية ، فيقلقون ، ثم لا تلبث الطمأنينة ان تعاودهم ، لانهم في ضيافة ملك فرنسا ، ولن يحاول ملك فرنسا الاعتداء عليهم وهم عنده في قصره •

ثم انهم كانوا على استعداد للدفاع عنه ، لاعتقادهم ان (دي كيز) هو المحرك لهذا الشعب ، وهو الذي يحاول اثارة الفتنة ، ليخلع الملك ويجلس مكانه على العرش •

وكان ان اقتربت كاترين من ابنها شارل التاسع •

وقالت له :

ــ انت تسمع هتاف الشعب ، فاذا لم تتحرك تحرك دي كيز وانصاره•

فارتعش الملك غضبا وذعرا ، واتقدت عيناه بوميض من النار ، هو الذي كان يستبق كل نوبة من نوباته ، فأخذ يضحك ضحكا عاليا •

وتظاهرت كاترين انها لم تسمع ضحكاته ، وسارت نحو شقتها الخاصة ، وكلما دخلت قاعة ، انحنت رؤوس الموجودين لها ، وكلما التقت امرأة من نساء بلاطها ، القت اليها بكلمة ومضت في سبيلها ، حتى دخلت الى غرفتها ، ومعها اليس دي ليكس •• فلما جلست على كرسيها قالت لها:

ــ عليك ان لا تبرحي اللوفر هذه الليلة •• فحاولت (اليس) الاعتذار •

فقالت لها الملكة :

ــ اني اعلم انك على موعد مع ماربلياك في الساعة الثامنة من هذا المساء •

ولما بدا الذهول على وجه اليس ، قالت لها الملكة :

ــ يجب ان تعلمي اني اعرف كل حركة من حركاتك ، وان لورا العجوز التي تسكن معك ، هي التي تقدم اليّ التقارير عنك ، فاحذري يا اليس في المستقبل ، واحسني اختيار خدمك •

واهتاجت اليس وتولاها ذعر وخوف عظيمين ، ومضت الملكة تقول :

ــ ولتعلمي ان ماربلياك سيبوح لك بسر عظيم عند الاجتماع بك •

« واما هذا السر فسأخبرك به انا ، وهو انه يريد الذهاب بك الى كنيسة سانت جرمين » •

« اتدرين لماذا يا اليس ؟ »

فلما اجابت بالنفي ، اخبرتها الملكة انه سيذهب بها الى الكنيسة ليعقد زواجه عليها •

وخفق قلب الفتاة ، واعتقدت ان الملكة تقول الحقيقة ، وسألتها عن الرسالة التي تملكها ضدها •• والتي وعدتها بردها اليها ، فاجابتها ، ان (بانيكارولا) سيردها اليها ، لانه هو الذي اخذها منها •

وانها ستجتمع به عند الساعة الحادية عشرة ، وعند منتصف الليل تجتمع الى ماريلياك •

وبدا القلق على وجه الفتاة ، من رغبة الملكة في اجتماعها الى (بانيكارولا) ، ولكن الملكة هوّنت من خطر هذا الاجتماع عليها ، وسألتها ما الذي ستفعله بعد زواجها ، وهل ستقيم في باريس مع زوجها ، ام تغادرها ؟

ولما كانت (اليس) تعلم ان ماريلياك هو ابن الملكة كاترين وقد كتمت هذا السر في قلبها ، مخافة ان تعلم الملكة بانها تعرفه ، فتقتلها •

فقد رأت ان تتكلف الحيلة ، فاجابت الملكة ، انها تفضل السفر حالا الى خارج باريس ، وبعد الزواج مباشرة •

وارتعشت الملكة لما سمعت هذا الجواب ، واطمأنت الى صدق اليس، واخذت تفكر فيما اذا كان من الواجب قتل ماريلياك ام تركه يذهب في سبيله •

وبعد قليل قالت :

ــ ستنتظر كما مركبة عند منتصف الليل ، امام باب الكنيسة لتذهب بكما الى خارج باريس •

وسأصدر الامر الى حرس (بـاب سانت دنيس) ليسمحوا لكما بالخروج •

والافضل ان تذهبا توا الى ليون ، ثم تذهبان الى ايطاليا ، فتقيمان في فلورنس ، وتنتظران تعليماتي فيها •

وركعت اليس عند قدمي الملكة ، ووعدتها بتنفيذ اوامرها •

وعندئذ اخبرتها الملكة بسرها ، وان لها ولدا من غير الملك ، وان ماريلياك يعرف هذا السر •

وعندئذ تظاهرت اليس بالدهشة العظيمة ، وانكرت ان يكون خطيبها يعرف هذا السر •

سألتها الملكة :
ــ كيف عرفت ذلك ؟
فقــالت :
ــ لو ان ماربلياك يعرف هذا السر لاخبرني به ، فهو لا يكتــم عني شيئـا •
وكان جواب اليس مقنعا ، فعادت الملكة تفكر في الموقف ، ثم عادت تطلب من اليس ان تعمل المستحيل لمعرفة اسم ولدها هذا الذي تجهــل مكانه ، واسمه •
والذي تعتقد ان ماربلياك يعرفه ، وان تحاول انتزاع هذا السر مــن ماربلياك عند وصولها الى فلورنسا •• لانها في شوق لرؤيته ، ومعرفته ، فانطلى حديثها على اليس ، ووعدتها ان تفعل •
وقــالت :
ــ سيدتي ، اقسم لك انك سترين ولدك ؟
ــ اواثقة انت مما تقولين ؟
ــ كــل الثقة •
فأطبقت الملكة عينيها تخفي اضطرابها وحقدها ، وقالت في نفسها :
ــ لقد اعترفت الآن ايتها الشقيقة بانك تعرفين سري •• واذا فقــد كان اعدائي ثلاثة ، ملكة النافار ، وماربلياك ، واليس ، وقد هلكت ملكة النافار ، وجاء الآن دور ماربلياك واليس •
وغادرت الغرفة بعد ان وعدتها بالاجتماع بها ليلا ، وسألتها البقاء في اللوفر حتى ترسل في طلبها •
وكاد الفرح يقتل اليس لما خلت الى نفسها ، فبكت سرورا ، وراحت تقول لنفسها :
ــ لقد بسم الدهر لنا اخيرا ، وانتهت ايام الشقاء •

★ ★ ★

مضى اليوم الاول من الزواج ، وهدأت العاصفة . وعـم السرور الجميع ، وخفت مظاهر النقمة على الهيكونوت ، كأنما صدرت اوامر الى زعماء الشعب ، بالمهادنة والسكوت •

وذهبت كاترين في الساعة العاشرة الى كنيسة سانت جرمين ، حيث اجتمع فيها خمسون امرأة من نسائها كلهن يأتمرن بامرها ، وقد تقلـدن الخناجر •

وكانت الملكـة تشير الى كل فتاة اشارة بطيئة سريعة ، وكانت قـد اختـارتهن ممن برعـن في التجسس والاحتيـال ، وسيرتهن لاعمالهـا واغراضها •

وقد وقفت الملكة فيهن خطيبة ، فأخبرتهن ان الساعة لانقاذ الملكـة قـد دنت ، وان مؤامرة قد دبرت لقتلهـا ، قام بها خمسون رجلا مـن الهيكونوت ، ليقتلوا نسائهـا الامينات الوفيات •• ولكنها عرفت بهـا قبل وقوعها •

وبرقت عيون النساء بغضب هائل ، وامسكن بخناجرهن ، وصدرت من افواههن مختلف الشتائم •

ومضت الملكة تقول :

ــ ان التي خانتنا ، هي احدى نسائي ، وكنا نثق بها ونعطف عليها ، وهي اليس دي ليكس •

فصاحت الفتيات بصوت واحد :

ــ النافارية الحسناء • •

واهتاجوا وثاروا ، وانطلقت السنتهن بالشتم والتهديد ، فلما هدأوا، مضت الملكة تقول :

ــ واما الرجل الذي كان يريد قتلكن جميعا ، فهو الكونت ماربلياك المنافق المحتال •• عند منتصف الليل •

« ولكني لن اكلفكن بقتلهما ، الا بعد ان يقتل (بانيكارولا) ، او يستطيع ماريلياك الدفاع عن نفسه ، وعندئذ اشير لكن اشارة خـاصة ، فتندفعن للانتقام منهما •• وهذه الاشارة هي ان ارفع خنجري واقول :

ــ هذا ما تريده السماء •

وعندئذ غادرت الملكة مكانها الى لوج خاص ، كما غـادرت النساء المكان ، حيث وقفن ينتظرن الساعة الحاسمة •• وراء الهيكل •

وأقبل رينيه الفلكي الى الملكة وهـي تفكر في لوجها ، يطلب منهـا العفو عن ولدهما •

ولكن الملكة اجابته ان هذا مستحيل ، لانها بعد ان استنطقت اليس، عرفت من كلامها ، انه يعرف انها امه ، وان اليس ايضا تعرف ذلك •

ورغم محاولات رينيه رفضت الملكة العفو عن ماريلياك ، وقرع الباب في هذه اللحظة ، فأمرته بالذهاب لفتحه •

فذهب وقد اغرورقت عيناه ، كئيبا حزينا ، فظهر من خلفه راهـب ستر عينيه بقبعته •

فسأل القادم رينيه :

ــ الى اين يجب ان اذهب ؟

فأشار رينيه الى حيث كانت الملكة ، وقال :

ــ اذهب اليها ايها الجلاد فانها بانتظارك •

فارتعش الراهب لما سمعه ، وغادر رينيه الغرفة يسير كالمجانين •• لا يدري ما يفعل ، ولا ما يعمل •

واقترب القادم من الملكة •

فقالت له :

ــ يسرني ان اراك تحافظ على مواعيدك ، فاهلا بك ايها المركيز •

« لقد وفيت بوعدك ، فأثرت باريس على الهيكونوت ، وانا وفيت لك بوعدك ، فجئتك باليس لتأخذها هدية مني لك •

« واما خصمك في حبها ، فقد اذنت لك بقتله ، وهذا هو السلاح » .
ودفعت له بورقة مطوية ، فاخذها بيد ترتجف ، وهو يقول :
ــ انها رسالة اليس .. يا الهي ما هذا الانتقام الفظيع .. ان ماربلياك يعبدها ، فاذا قرأ رسالتها هذه التي تعترف فيها بان لها ولدا ارادت قتله ، فانه سيموت من الغم والهول .. شكرا يا سيدتي ، لقد اعطيتني اقوى سلاح لقتله به .
فقالت الملكة :
ــ لقد اتفقنا .. وستقدم هذه الرسالة لماربلياك ، وتدعوه لقراءتها ؟
ــ بالتاكيد .
ــ ثم تذهب الى اليس وتعزيها عن فقد ماربلياك ، لانها سيتكون في حاجة الى العزاء ، وقد سبرت نفسها فهي لا تكرهك .
« وستجد على الباب مركبة تنتظرك .. الم تشاهدها ايها المركيز » ؟
ــ نعم لقد شاهدتها .. وماربلياك ، هل سيحضر لهنا ؟
ــ سيحضر حتما .
ــ ولماذا حضوره في الوقت الذي تحضر فيه هي ؟
ــ الذي يهمك معرفته انه سيحضر الى هذا المكان .. واذا رأيت انه سيظل مخلصا لاليس بعد قراءة رسالتها هذه ، واذا رضي ان يتزوجها وهي ملوثة بعار الخيانة ، فما الذي سوف تفعله ؟
فلم يجب الرجل ، وازاح وشاحه ، فظهرت من تحته ملابس الفرسان البديعة التي كان يلبسها يوم كان مركيزا ، وظهر في حزامه خنجر كبير اشار اليه .
وهو يقول :
ــ سيكون هذا الحكم بيننا .
وسمعت الملكة في هذه اللحظة ، صوت مركبة تقف امام الباب ..

وغادرت (اليس) المركبة ودخلت الى الكنيسة ، فتولتها الرهبة ، لانها كانت منارة باربعة مصابيح ، تبعث نورا باهتا خفيفا .

واحست بيد تمسك بساعدها وصوت يقول :

ــ هل اتيت يا ابنتي ؟

وعرفت اليس صوت الملكة .

ــ نعم هذا انا .

« ولكن اين الكاهن يا سيدتي ؟. واين ماريلياك » ؟.

ــ انه لا يلبث ان يأتي .

وسمعت طرقا على الباب الخارجي في هذه اللحظة ، وحاولت اليس الذهاب لفتح الباب ، ولكن الملكة منعتها ، وهي تقول :

ــ بل انا افتحه !

وعجبت (اليس) لعمل الملكة هذا ، فليس من شأن الملكات فتح الابواب .

واقبل ماريلياك .

فسألته الملكة :

ــ ألم تصحب معك احدا من اصدقائك ؟

فعرف ماريلياك الملكة من صوتها ، فحنى رأسه باحترام ، وقال :

ــ لقد كنت اريد ان احضر صديقا محبا لي ، ولكن الشفاليه لن يطلق سراحه قبل صباح الغد .

فقالت :

ــ نعم .. لقد نسيت ذلك .

ثم جمعت بين الخطيبين ، وتقدمت بهما الى المذبح ، فركعا عند درجاته .

وقالت اليس :

ــ اني لا ارى الكاهن فأين هو ؟

وكانت الملكة قد توجهت الى زاوية من زوايا الهيكل ، فوضعت يدها على الرجل الواقف فيها •

وقالت له :

ــ هذا هو الرجل الذي يريد الزواج من اليس •

واضطرب الرجل ، وكشف عن وجهه ، وتقدم نحو الخطيبين •

— ٥ —

الاعتداء على كولوليني

سرقت (لورا) ما تملكه اليس من المال والمجوهرات ، وحملت المال في صندوقة صغيرة ، وغادرت البيت لا تلوي على شيء ، بعد ان اطمأنت الى ان « اليس » لن تعود اليه ، والى ان ماريلياك سوف يموت ٠

وفيما هي في طريقها ليلا في شوارع باريس ، هاجمها رجل كان يتأثر خطواتها ، وقتلها واخذ ما معها من الاموال ، وكان رينيه الفلكي ، قد كلفه بقتلها بأمر الملكة كاترين ، حتى لا تتحدث بالاسرار التي تعرفها الى احد من الناس ٠

وقال القاتل بعد ان عثر على المال :

ــ ما اعجب هذه الحياة ، لقد كنت لا املك فرنكا هذا الصباح ، فما امسى المساء حتى بت من الاغنياء بل ما اسعدني بقتل هذه العجوز ٠

« لقد قتلت كوليني قبلها ، فكنت اجازي عن كل واحد منهم بدينارين، واما هذه العجوز ، فقد حصلت من قتلها على ثروة عظيمة » ٠

ومضى يحدث نفسه وهو يفرك يديه :

ــ والواقع اني اعرف الرجل الذي يستأجرني دائما لقتل الناس ، انه

الفلكي رينيه الذي يعمل في اللوفر .

ومضى القاتل الى حانة (كاتي) ، صديقة بارداليان ، حيث شرب عدة اقداح من الخمرة ، مسرورا فرحا راضيا .

وكانت خمارة كاتي قد اصبحت مركزا لامثال هؤلاء المجرمين ، وبنات الشوارع ، يأوون اليها ، لماقرة الخمرة ، والاستعداد لسلب او جريمة جديدة .

وكان ان اقبلت في هذه اللحظة امرأتان على الحانة ، فلما شاهدتهما (كاتي) سألتهما اين كانتا ، ذلك انها لم ترهما منذ شهر تقريبا .

وعندئذ اخبرتها المرأتان ان حاكم سجن الباستيل يدعوهما اليه كل ليلة ، فيعاقر الخمرة معهما ، حتى اذا اقبل الصبح اطلق سراحهما .

وانهما لم يذهبا اليه الليلة لانه في شاغل عن السكر والراح ، وقد دعاهما لحضور حفلة التعذيب التي ستقام في السجن صباح يوم الاحد .. وهما يريدان من (كاتي) ان تجهز لهما ثوبين جميلين ، بحيث لا يفطن احد الى شخصيتهما ، بل يظنهما من بنات العائلات الكريمة او من قريبات الحاكم .

سألتهما (كاتي) من يكون الرجل المعذب .

فاخبرتاها انهما رجلان .. بارداليان الكبير وابنه .

واصفرت (كاتي) لما سمعت هذا الخبر وبذلت جهدا عظيما حتى تمكنت من ضبط اعصابها .

فقد كانت تحب بارداليان الاكبر منذ زمن بعيد ، وقد ازداد حبها له ولابنه ، بعد حادثة احراق الخمارة التي ذكرنا اخبارها في الكتاب الاول ، وكيف اعطاها بارداليان كل ما يملكه من المال ، حتى تمكنت من بناء هذه الحانة ، الجديدة التي تعيش من ورائها الآن .

سألتها المرأتان فيما اذا كانتا تستطيعان الاعتماد عليها في تحضير الثوبين الجديدين •
فأجابتهما بالايجاب •• وصرفتهما •
واخذت تفكر فيما يجب عليها عمله لانقاذ بارداليان ، ثم قررت ان تدخل الى السجن ، دون ان تدرك معنى ما تقوله •• اذ كيف تدخل السجن ، دون ما دعوة ولا توصية من رجل مسئول كبير •
وفيما هي في هذه الحالة شاهدت رجلا وامرأة من زبائنها يدخلان الخمارة ، وهما يجران المرأتين جرا ، ويصيحان انهما قتلتا عجوزا امام باب الخمارة ، والمرأتان تصيحان وتنكران كل الانكار •
فتدخلت (كاتي) واخبرت المرأة وعشيقها انه اذا تدخل البوليس بالامر ، فسيقبض البوليس على الجميع ، ويذهبون بهم الى السجن للتحقيق ، وان هذا لن يسر احدا من الزبائن •
وكان ان تراجعت المرأة عن هذه التهمة الكاذبة •• لانها كانت تكره المرأتين ، فلفقت لهما هذه التهمة ، وطلبت (كاتي) على الاثر من المرأتين البقاء عندها ، حتى اذا انصرف الزبائن قالت لهما :
ــ قد تكونان بعيدتين عن الجريمة ولكن القرائن ضدكما والشهود عليكما •
فاخذت المرأتان بالبكاء ، وسألتاها مساعدتهما ، فوعدتهما بذلك شرط الطاعة العمياء ، فسألتاها :
ــ ماذا يجب ان نعمل ؟
ــ سأقول لكما ما يجب عليكما عمله في الوقت المعين •
« واما الان فعليكما ان تناما هنا ، ولا تبرحا هذه الخمارة من الان الى يوم السبت •
« واذا حاولت واحدة منكما مغادرة الحانة ، ذهبت الى البوليس

فاخبرته بقصة الجريمة •• ويوم السبت سوف اعطيكما ما تريدانه من الملابس لحضور السهرة في سجن الباستيل » •

وكان ان وافقت المرأتان على اطاعة اوامر (كاتي) وان لا يخالفانها ابداء

★ ★ ★

لا بد لنا قبل متابعة هذه القصة ، من العودة قليلا الى بعض ابطال هذه الرواية ، فقد نقل هنري دي مونتمورانسي كل رجاله من قصر مسيم، الى قصر آخر قريب من باب مونمارتر ، لسببين اولهما : جمع رجاله في مكان واحد ، حتى اذا حاول شقيقه فرانسوا مهاجمته دافع عن نفسه ، في القصر الذي هو امنع من قصر مسيم •

وثانيهما ان الملك لما عهد اليه بحراسة ابواب باريس ، اختار للحراسة جماعة من رجاله المخلصين •

ولما كان يخشى ان تعرف كاترين باتفاقه مع دي كيز لخيانة الملك والثورة عليه ، بعد ان عرف من مورفر ، انها بدأت تشك في رجال هذه المؤامرة ، اختار ان يكون قريبا من باب مونمارتر ليهرب منه حالا ، ويفر بجلده •• اذا وقعت الواقعة ، وحاولت الملكة القبض عليه •

ولكن قصر مسيم لم يكن خاليا خاويا من الناس •

كان هناك جيل وجيلوت ، يتناولان الخمرة ، والاول يقدم القدح بعد القدح لابن اخته حتى يسكر ويفقد رشده •

وكان قد تذكر جيلوت في هذه الاثناء شيئا ، فقد كان هنري دي مونتمورانسي قد طلب من (جيل) وكيله في القصر •• اعطاء جيلوت ثلاث الاف ريال ثمنا لتجسسه على بارداليان ، واغوائه له بالذهاب الى قصر مسيم لخلوه من الحراس ، وبقاء هنري وحده فيه •

وكان ان ذهب بادراليان الاكبر كما قدمنا ، وقبض عليه رجال هنري

وكبلوه وارسلوه الى سجن الباستيل •
ولكن (جيل) لم يدفع لابن اخته غير الف مـــن الريالات ، واحتفظ بالباقي ، فطالبه جيلوت بعد ان سكر بالمبلغ المتبقي له ، واشتد الخصام بين الرجلين ، ورفع جيلوت خنجره في وجه خاله •
وكان ان غضب هذا منه ، وحقد عليه وهاجمه ، وحاول قطع لسانه ، وحدثت على الاثر معركة قوية بـين الرجلين ، حاول جيـــل فيها خنـــق (جيلوت) ، وحاول الثاني طعن جيل بخنجره ، وكان ان انتهت المعركـــة بموت الرجلين •

★ ★ ★

كان (بانيكارولا) يناجي نفسه وهو يتقدم نحو المذبح ، ويقول لها :
ــ هل يجب ان يمضي في السبيل الذي رسمته له كاترين ، ام عليه ان يتردد ويفكر ، وما هو الخير الذي سيعود عليه فيما لو قتل العاشقين ، وفرّق بينهما •• انه طبعا لن يحصل على الفتاة ، ولا يمكن ان تكون له في المستقبل بعد الضربة القاسية التي اصابتها منه •
ثم سأل نفسه لـماذا يسير على سياسة كاترين ، التي تحـاول تمزيق الناس ، وتقسيم القلوب ، واهراق الدماء ؟
ولما وصل الى المذبح ، وشاهدته اليس احست بالخطر ، وسوء المصير، وشاهد ماريلياك اصفرار وجهها واضطرابها ، وقبل ان يسألها عما بهـا ، هوى بانيكارولا ارضا وقد اغمي عليه ، وبانت على الاثر ثيابه الداخلية ، فعرف ماريلياك انـه ليس بكاهن ، فجذب يده مـن اليس ، ومشى الى كاترين يسألها :
ــ ما هذا الذي حدث يا سيدتي ؟ ومن هذا الرجل ، انه ليس براهب، فاني اراه بملابس الفرسان ، تحت وشاح الرهبان •

وكانت رسالة (اليس) لا تزال بيد بانيكارولا عند سقوطه .
ودنت اليس من خطيبها وقالت له :
ـ هلم نهرب .. هيا بنا .
وعاد ماريلياك يسأل الملكة :
ـ من هذا الرجل ؟
قـالت :
ـ لا ادري .. ولا بد ان الرسالة التي بيده تنبئك عن حقيقته وامره.
ثم صاحت فجأة :
ـ لقد عرفته فهو المركيز بانيكارولا ، ما الذي اتى به الى هنا بـدلا من الكاهن الذي كنا بانتظاره ؟
فاسرع ماريلياك يتناول الرسالة من يد الراهب وهو يقول :
ـ ما الذي يريده مني ؟
دنت (اليس) منه وقالت له :
ـ لا تقرأ ما في الرسالة .
ـ هل تعرفين ما فيها ؟
ـ الافضل ان لا تقرأها .. ولنهرب من هذا المكان فالموت يخيم علينا.
فقال ماريلياك بعناد :
ـ ان هذه الرسالة تحتوي على الحقيقـة التي كانت تعرفها ملكـة النافار ، والتي كتمتها عني امي !
قـالت :
ـ لا تقرأها ايها الحبيب اذا اردت ان تبرهن لي عن حبك .
ـ اتعرفين هذا الرجل يا اليس ؟

كانت اليس تتكلم متوسلة ، وماريلياك يجيبها والشكوك قد غمرته، فلما حاولت اختطاف الرسالة منه ابعدها عنه ، وتقدم الى مشعل ليقرأها

تحته .

وعندئذ ركعت اليس وهي تقول :

ــ الوداع ايها الحبيب .

ثم تناولت سما وضعته في خاتم باصبعها ، وراحت تنظر الى ماربلياك هادئة صامتة .

اما ماربلياك فقد كان يقرأ في الرسالة اعتراف اليس دي ليكس بانه اذا مات ولدها الذي ولدته من المركيز بانيكارولا فهي التي قتلته .

وتبدلت سحنة ماربلياك بعد ان قرأ الرسالة ، وتقدم نحو الملكة ، وهو لا يرى شيئا مما حوله ، وقال لها :

ــ اراضية انت يا اماه ؟ لماذا تريدين قتلي بهذه الطريقة ؟

فايقنت كاترين ان الكونت يعرف الحقيقة ، ورفعت خنجرها وهي تقول :

ــ لست انا الذي يريد قتلك ، بل هي ارادة السماء .

وعندئذ حدث ضجيج هائل في الكنيسة ، وهجمت خمسون فتاة بايديهن الخناجر على ماربلياك ، فطاش رأس المسكين ، ولم يعد يسمع غير صوت اليس تقول له :

ــ احبك .

وصاح يكرر قولها له :

ــ احبك .. هلم بنا نهرب .

فصاحت اليس صيحة فرح وسرور ، وقالت :

ــ رباه لقد عفا عني .

وزحفت نحوه ، بعد ان هوى ارضا من الجراحات التي اصابته ، وهي تقول :

ــ اقتلوني انا .. فهو لا يستحق الموت .

ثم نظرت الى الملكة وقالت لها :
ــ هذا هو ولدك الذي تبحثين عنه ، فانظري الى دمه يجري امامك •
ثم سقطت فوق جثة حبيبها وهي تقول :
ــ احبك •

★ ★ ★

عادت النسوة بعد هذه المجزرة الى اللوفر ، الا واحدة منهن وقفت امام اربعة رجال كانوا يتحدثون امام الكنيسة ، فالقت اليهم بكلمـات ، فدخلوا الى الكنيسة وذهبوا بجثة ماريلياك ، فلما اصبحت كاترين وحدها تقدمت من المركيز بيكارولا ، وجست قلبه فادركت انه حي ، فاخرجت قارورة صغيرة من صدرها ، وضعتها تحت انفه ليشمها فعاد الى وعيه ، فاخذت بيده وذهبت به الى حيث كانت جثة اليس وقالت له :
ــ لقد قتلها بعد ان قرأ الرسالة •• دون ان استطيع الدفاع عنها •
« ثم غادر الكنيسة هاربا، فحسب حراسي انه قتلني حين رأوهملوثا بالدماء فقتلوه ، واني اترك لك جثتها لتتصرف بها » •
ولما غادرت الملكة الكنيسة ، اخذ المركيز يفحص جراحها ، وينظفها ، فوجد انها ليست قاتلة ، ثم عثر على السم فادرك انها قتلت نفسها قبل ان تصل اليها الخناجر ، فلم يقل شيئا ولفها بوشاحه العريض ، وحملها على ظهره ، وذهب بها الى تربة الابرياء ، حيث ايقظ الحارس ، الذي عرفـه حالا ، فامره ان يحفر حفرة تحت شجرة اشار له عليها ، فلما فعل اعطـاه كيسا من الذهب وقال له •• بعد ان انزل جثة اليس في الحفرة :
ــ عد بعد ساعة الى هذا المكان فتجد جثتين فتهيل عليهما التراب •• ثم تنصرف في شأنك •
فذعر الحفار وقال :

ـ جئتك انت ايضا يا سيدي ؟
قال :
ـ نعم •
فسأله :
ـ ولماذا اعطيتني هذا المال ؟
ـ لان هناك احد رجالي يراقبك فاذا لم تنفذ ما آمرك به قتلك شنقا، وهذا المال ليس لك ، وانما هو لغلام في السادسة من عمره ، سوف يزورك ويسألك عن موضع قبر امه ، فمتى جاءك تدله على هذه الحفرة ، وتقول له :
ـ هذا قبر امك وابيك •• فانصرف الان وعد بعد ساعة كما امرتك •
وعاد الحفار بعد ساعة ليجد بانيكارولا ميتا ، وقد شرب السم الذي شربت منه اليس •

★ ★ ★

لقد اخذت تتابع حوادث هذه القصة ، فقد ضاق صدر (بيبو) كلب بارداليان الابن لغياب صاحبه ، فمضى يفتش عنه فلم يعثر له على اثر ، فذهب الى حانة (كاتي) فعرفته فاطعمته ولاطفته ، ثم عاد الى قصر مونتمورانسي ينتظر عودة سيده فلم يعد •
واقبل الليل وهو لا يزال في مكانه ، وفيما هو في شأنه اشتم رائحة كلبه فاسرع اليها يطارحها الغرام ، وكانت مع رجلين اخذا يطوفان حول قصر فرانسوا دي مونتمورانسي ، ولم يكونا غير هنري شقيقه وصفيه الكونت دي اسبرمونت ، قدما لفحص القصر ، لانهما كانا يريدان مهاجمته ، ولما عادا الى القصر تبعهما بيبو مع الكلبة ، ودخل الى القصر معهما •• وقد نسي (بيبو) صديقه ، امام غرامه الجديد •

واما كاترين فقد عادت الى اللوفر كما قدمنا ، وكـانت الحفلات لا تزال تتوالى في القصر بمناسبة زفاف شقيقة الملك ، منذ يوم الاثنين .

وفي يوم الجمعة اعلمت الملكة مورفر ، بانها تأذن له بقتـل الاميرال كوليني ، وكان الدوق دي كيز قد نصحه بان يجرحه فقط .

وكان مورفر قد اتفق مع احد اصحاب المنازل التي يمر بها الاميرال في طريقه كل يوم الى قصر اللوفر ، ليصار الى اطلاق النار على الاميرال في منزله ، فوافق الرجل واعلن لجيرانه ، انه مغادر باريس الى الخارج . وفي يوم الجمعة ، ذهب مورفر الى المنزل ودخله من باب سري واخبر صاحب المنزل بان الساعة قد حانت .

فاراه صاحب المنزل جوادا في اصطبله واخبره ان الدوق دي كيز قد ارسله اليه ليركبه ويغادر باريس بعد اطلاق النار على الاميرال .

وذهب الاثنان على الاثر ، الـى نافذة تطـل على الشارع ، فلما مر الاميرال ومعه ستة من اتباعه ، واقترب من النافذة اطلق عليه (مورفر) النار فاصابه في كتفه الايسر ويده ، فذعر حراسه ، ولم يقترب منه الناس لاسعافه لما علموا انه من الهيكونوت .

ولما سقط الاميرال الى الارض .. اشار الى النافذة التي اطلق منها النار ، فهجم بعض حراسه على باب المنزل ، فيما امر كوليني احد رجاله باخبار الملك .

واما مورفر فقد غادر المنزل بعد اطلاق النار ، كما غادره صاحب المنزل واسمه (فالمر) من باب في القبو ، بينمـا راح حراس الاميرال الجريـح ينقلونه الى قصره .

وكان الهيكونوت الذين في باريس قد تجمهروا حول منزل الاميرال وهم يصيحون ويصخبون ، ويتوعدون ، ويتهددون .. والاميرال يهدىء روعهم ، ويطلب منهم لزوم الهدوء والسكينة .

وبعد قليل اقبل الملك لزيارة الاميرال في قصره ، ومعه كاترين امه والدوق دانجو شقيقه .

ولما وصل الى الباب وشاهد الجماهير انبأهم ان الاميرال ضيفه ، وانه سيقتص من المجرم اشد القصاص .

وقد غضب الملك لما علم بالاعتداء على الاميرال وصاح :

ــ لقد كفى ما يجري في هذه المدينة ، ففي كل يوم لنا قتيل ، وفي كل ساعة جريح .

وهدد الباريسيين بانه سيترك خصومهم يحاربونهم ، اذا ظلوا على تعصبهم واجرامهم ، ونادى مدير البوليس ، وامهله اياما ثلاثة للقبض على المجرم ، او يحيله الى المحاكمة كشريك للقاتل .

واعلن انه سيشنق كل من يحمل سلاحا او يخفيه في ثيابه ، الا النبلاء.

فلما رد احد مستشاريه بان جميع الباريسيين يحملون السلاح ، اجابه :

ــ اذا شنقنا عشرين منهم لا يعود احد يحمل السلاح .

وحزن الملك لما اصاب الاميرال ، وغضب لان جرحه سيؤجل ذهاب الحملة الى حدود هولندا .

وكان جميع الهيكونوت سيذهبون مع الحملة فلا يبقى احد منهم .

وفكر فيما قالته له امه من ان الاميرال سيخونه ويخدعه ، ثم قال :

ــ ولو سلمنا جدلا بانها مصيبة في زعمها ، اليس من الحكمة ارساله على رأس حملة ليكون بعيدا عن القصر والعاصمة .

ثم لا يبقى بعده في باريس غير هنري دي نافار ، وهذا تراقبه شقيقتي، وهي مخلصة لي .

وعندئذ لا يبقى من اعدائي غير الدوق دي كيز ، وهو لا شأن له وحده .. واخيرا يبقى اخي الدوق دانجو حبيب امي .

ولما وصل الملك الى قصر كوليني سر الاميرال الشيخ برؤيته ، وهتف الطبيب يقول :

ـ ان جراح الاميرال ليست بذات بال ، وسيشفى بعد اسبوعين •

وبعد ان اقام الملك ساعة عند الاميرال ، طلب من رئيس حرسه حراسة القصر ضد اي معتد عليه •• واعلن انه سيذهب الى اللوفر بحراسة اشراف الهيكونوت •

وفي المساء اقام الملك حفلة عظيمة في اللوفر سرورا بسلامة الاميرال• وكان الملك بالتأكيد فرحا مسرورا •

وقد لعب القمار تلك الليلة مع هنري دي نافار ، فربح منه هنري مائتي دينار ، فعاد الى زوجته فرحا ، يقول لها :

ـ اذا طال بنا المقام هنا اصبحنا بفضل اخيك من الاغنياء •

فراحت توصيه بالحذر ، ولما سألها عن السبب قالت :

ـ لم ار امي بمثل هذا الفرح اليوم، ومتى كانت كذلكفان العواصف تهب عادة •

وعند منتصف الليل اقفل اللوفر ، وساد فيه الصمت العميق •

- ٦ -

تدخل الملك

أوى ملك فرنسا الى غرفته الخاصة ، في قصر اللوفر بعد الحوادث التي وصفناها •

كان تعبا مرهقا ، ناقما يائسا ، يفكر في هذه الاغتيالات التي كثرت في باريس •

وفي هذا الخلاف الناشب بين فئتين ، من فئات الشعب الفرنسي •

ثم رقت نفسه لما تذكر حبيبته ماري توشيت •

لقد كانت المرأة الوحيدة التي يأنس اليها ، من بين كل الناس جميعاً

وسمع طرقا على بابه الخاص في هذه اللحظـة ، ولم يكن هناك احد يستطيع ان يطرق هذا الباب ، الا امه ، ففتح لها الباب ، فدخلت كاترين تقول :

ـ اريد ان اتحدث اليك يا بني •••

« ان هناك اجتماعا عنـدي ، حضره مستشارك والدوق دي انجو شقيقك ، والدوق دي نافري ، والمارشال دي تافان •

« وبعد ان بحثوا الموقف الحاضر ، اتفقوا على السبيل الوحيد لانقاذك وانقاذ المملكة »

وجمد الملك في مكانه لحظات .

وقال بعد قليل :

ــ لولا اني واثق من سلامة عقلك ، لقلت انك أصبت بالجنون ... كيف يجرأ هؤلاء السادة على بحث شؤون الدولة بدون امر مني ، ومن الذي دعاهم الى هذا الاجتماع ؟

« هل وقعت حرب بيننا وبين اسبانيا ، ام هل أصيبت باريس بالوباء .

« ثم ما شأن هؤلاء في الاجتماع واتخاذ القرارات ؟ ومهما يكن الامر فليفعلوا ما يشاءون وليتركوني انام هانئا » .

أدار ظهره لامه ، وحلول العودة الى سريره ، ولكن هذه صاحت به تقول :

ــ لا تفعل او تكون هذا آخر ليلة تنام فيها على سريرك .

واجفل الملك ، واحمر وجهه ذعرا وخوفا ، وراحت الملكة تقول :

« انه يحسن به ان يكون من الشاكرين لرب السماء ان اعطاه قوما يدافعون عنه ، ويحافظون على حياته ، ولولا يقظتهم لهوجم اللوفر ، وقتل الملك وقتيت امه .

« وانه من الجنون ان يسلم نفسه مكتوف اليدين للهيكونوت الذين يريدون القضاء على عرشه ، وقتله ... وزدت على ذلك ان كلفتهم بحراستك ، وتركت حراسك الامناء المخلصين » .

وما زالت به تردد امامه هذه الاقوال وتخوفه من الموت ، وان عليه ان يقتل اعداءه او يقتله اعداؤه .

ولما سألها :

ـ من تريدين ان اقتل ؟
اجابته : ان عليه ان يقتل (كوليني) فهو اكبر عدو له .
وشعر الملك بدوار لما سمع هذا الجواب .
كيف يقتل الشيخ الكبير وهو ضيفه ؟
وسألها عن البراهين التي تثبت له ان كوليني يريد قتله .
فأجابته انها ستقدمها له غدا صباحا ، لانها تمكنت من القبض على الرجلين الذين يعرفان هذه الاسرار ، اسرار كوليني وفرانسوا دي موتمورانسي ، واحد هذين الرجلين هو الشفاليه بارداليان الذي استقبلته في اللوفر مرة مع المارشال فرانسوا ، ثم هرب منه لما حاول حراسك القبض عليه ... واما الرجل الآخر فهو ابوه .

ولتعلم اني قبضت على هذين الرجلين ، وسأحضر استنطاقهما غدا ، وانا واثقة من ان كوليني لم يأت الى باريس الا لقتلك .
ولم يصدق الملك كل ما سمع من امه ، ولكن التردد بدا على وجهه ، ثم ما لبث ان قال :
ـ حسنا سوف أقرأ اوراق التحقيق غدا .. واعترافات السجينين .
ولكن امه ما برحت به حتى اخذته الى مكان الاجتماع ، حيث استمع الى جميع الحاضرين يؤكدون ان بقاء كوليني يوما واحدا حيا ، سيدفع شعب باريس الى الثورة ، وليس من يدري بعد ذلك ما تكون نتيجة هذه الثورة .

وكانت الام قد اقنعت ابنها بأنه اذا لم يتحرك ويأمر بالقضاء على الهيكونوت ، فان الدوق دي كيز سوف يفعل بمساعدة شعب باريس ، حتى اذا انتهى من تصفية هذه الفئة زحف الى اللوفر على رأس رجاله ، وازال الملك عن عرشه بحجة انه ضعيف ، وانه يتعاون مع اعداء الشعب والدين .

وضرب جميع الحاضرين على هذا الوتر ، وخوّفوا الملك من عاقبة التردد .

ونظر اليهم الملك اخيرا نظرة القانط وصاح يقول :

ــ انكم تريدون جميعا قتل الاميرال فاقتلــوه ... اقتلوا ضيفي ، واقتلوا معه كل الهيكونوت في فرنسا .. حتى لا يبقى هناك من يقول ان ملك فرنسا من الخائنين .

واخذ يضحك تلك الضحكات التي تسبق نوبته .

وأبرق وجه كاترين ، عند سماعها جوابه ، وقالت :

ــ لقد نلنا منه ما نريد .

وسارت بالجميع الى غرفة مجاورة ، وكانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد منتصف الليل ، ودعتهم الى مقابلتهــا غدا في الساعة الثامنة صباحا لبحث تفاصيل المجزرة ، بعد ان تقرر موعدها بعد غد .

فلما انصرف الحاضرون ، دعت رينيه الفلكي اليها ، وقالت له :

ــ لقد حان الوقت يا رينيه ، فابلغ كريس وكرفيه وبيزو ليتأهبــوا لبعد غد ... وستجري المذبحة في ليلة غد ، وستتولى انت تعيين شخص ليقف في كنيسة سانت جرمين ، حيث تدق دقــات الاشارة المعلومة لبدء العمل .

واما الملك المسكين فقد عاد الى غرفته يائسا قانطا والاشباح تطارده ، وهو يصيح مناديا عشيقته :

ــ ماري ... هلمي بنا نهرب من باريس ... هلمي بنا نهرب لاني لا أطيق منظر الدماء .

★ ★ ★

وفي هذه الاثناء كان باردليــان وابنه ينامــان في غرفتهما في سجن

الباستيل ، بعد ان تقرر ان يجري تعذيبهما في صباح غد ، لانتزاع ما يعرفان من اسرار دي كيز ، ومؤامرة كوليني ، كما تدعي الملكة .

وكان البطلان قد فحصا الباب فوجداه قويا متينا لا يستطيعان كسره ولا خلعه ، وقد مضت عليهما ستة ايام في هذا السجن ، دون ان يشاهدا الحاكم الذي كان غارقا في سكره وغرامه .

ولما اصبح صباح يوم الاحد افاق بارداليان قبل ابنه ، فوقف ينظر اليه نظرة مليئة بالحنو والحب والاسف ، لما سوف يتعرض له من التعذيب بعد قليل .

ولما افاق الابن ونظر الى ابيه ادرك ما يجول في خاطره ، فجلسا معا لا يتكلمان ، وهما ينتظران الساعة الحاسمة .

وعندئذ سمعا وقع اقدام في الرواق المؤدي الى غرفتهما .

وبعد دقائق دخل المسيو مونتليك حاكم السجن ومعه عشرين جنديا، احاطوا بهما ، واخذوهما الى غرفة التعذيب ؟

كان الجلاد بانتظارهما ... والى جانبه شخص عرف فيه بارداليان مورفر عدوه اللدود .

وكانت الغرفة منارة بالمشاعل لان الشمس لم تكن تصل اليها .

وسأل الحاكم مورفر :

ــ بأيهما تريد ان تبدأ .

فتقدم عندئذ الشاب وطلب ان يبدأوا به ، ولكن والده عارض وارادهم على البدء به هو .

ووافق (مورفر) على البدء بتعذيب الاب ، لان الابن سوف يتعذب كثيرا لرؤية والده في هذه الحالة .

وارتد (مورفر) في هذه اللحظة الى باب غرفة كانت تقف فيها امرأة وضعت وشاحا على وجهها ، وقد لبست ثوبا اسود اللون ، فأشارت اليه

باشارة من يدها ، فعاد الى حيث كان ، وطلب من الجلاد ان يبدأ عمله .
وامسك الحراس الاب .
وهاج بارداليان الابن هياج المجانين وهجم على الحراس .
وصاح الحاكم ينادي رجاله لجلب الحديد وتقييد بارداليان .
وعندئذ فتح الباب ، وظهرت امرأة على عتبته ، قالت بصوت عال :
— باسم الملك اوقفوا التعذيب .
وجم الجميع عند سماع اسم الملك ، وسقطت السلاسل من يد الجلاد ... وعضّ مورفر على شفتيه ... حتى كاترين نفسها ارتعشت وجمدت في مكانها .

كانت المرأة فتاة رشيقة جميلة ما كادت تشاهد الاب وابنه حتى قال :
— لقد وصلت قبل فوات الاوان .
وصاح بارداليان الابن :
— ماري توشيت .

ودنا حاكم السجن منها يسألها :
— من انت يا سيدتي .
— اني رسولة ملك فرنسا ، وهذا كل ما يهمك معرفته ؟
— وكيف دخلت الى هنا ؟
فلم تجبه ماري وقدمت له ورقة قرأ فيها ما يلي :

« نأمر حاكم سجن الباستيل ان يأذن بدخول حامل هذا الامر الى غرفة التعذيب .

شارل — الملك
فلما انتهى من قراءتها اعطته ورقة اخرى قرأ فيها ما يلي :

« تأمر بايقاف تعذيب باردالیان وابنه ، وعـدم استنطاقهما الا بأمر منا » .

شارل ــ الملك

حنى الحاكم رأسه ، والتفت الى قائد الحرس قائلا :

ــ اعد السجينين الى غرفتهما .

حاول مورفر الاعتراض ، ولكن الحاكم لم يبـال به ، ولما اعترض مورفر بأن الامر قد يكون من غير الملك اجابه :

ــ ان هذا الامر مختوم بختم الملك وهذا كل ما يهمني .

ومضى مورفر الى كاترين فقالت :

ــ لقـد سمعت كل شيء واعرف المـرأة التي حملت الامرين ، ولا سبيل الى مخالفة امر الملك ، فاصدع بالامـر ولا تخف ، فقد وهبتـك الاسيرين وسيكونان لك بالتأكيد .

وطلبت منه ان يغادر باريس اسبوعا ، لان البوليس يبحث عن مطلق النار على كوليني .

ولكن مورفر لم يفعل ... بل إقام فيباريس متواريا يرقب الحوادث .

وعادت كاترين الى اللوفر ، وهي تسأل نفسهـا كيف اهتمت خليلة الملك بالاسيرين ، وما علاقتهما بها .

وقررت ان تسأله حين تخلو به .

والواقع ان الصدفة هي التي انقذت الاسيرين ، فقد ذهب الملك لزيارة (ماري) في منزلها ، واخذ يحدثها كما هي عادته باخبار اللوفر ، ودسائس اللذين حوله ، والمتآمرين في البلاط .

ثم اخبرها بان امه قد ظفرت ببرهان على تآمر الدوق دي كيز عليه ، وانها ستذهب بنفسها الى السجن لتحضر تعذيب الشقيين اللذين يعرفان قصة هذه المؤامرة .. وهما باردالیان وابنه .

وصاحت (ماري) حين سمعت هذين الاسمين ، وطلبت من الملك العفو عنهما ، واعلمته انهما الشخصان اللذان انقذاها من الموت ، مع العالم اراميس ، وانها واثقة انهما من المخلصين له ، وانها الان حية هي وولدها بفضلهما ، واذا كان يعرفان شيئا مما تقول ، فانهما سيعترفان به امامك ، وانا واثقة انهما سيفعلان .

فقال الملك :

ـ لقد اصبت فما الذي يمنعني من ان اتولى استنطاقهما بنفسي .

وكتب الامرين ووقعهما ، وذهبت بهما ماري بنفسها الى السجن فوصلت في الوقت المناسب كما قدمنا .

★ ★ ★

تكلفت كاترين الابتسام عندما عادت الى اللوفر ، بعد ان افلت منها بارداليان وابنه ، فقد كانت تمني نفسها بان تحصل منهما على الاعتراف الذي يؤكد مؤامرة دي كيز على العرش .

فلما دخلت الى غرفتها من رواق سري ، سألت خادمتها عمن ينتظرها .

فاعلمتها بوجود الدوق دي كيز ، والدوق دانجو ، والدوق اومال ، والمستشار ، وكوندي ، والمارشال تافان وهنري دي مونتمورانسي ، وغيرهم ، فطلبت من الخادمة ان تدخل الدوق دي كيز عليها .

واقبل الدوق بعد قليل تياها فخورا ، فحنى رأسه فاشارت اليه بالجلوس فجلس بجانبها ، وهو ينظر اليها نظرات الند للند .

وادركت كاترين انه ينتظر ان ينادي به الباريسيون بعد ايام ، ملكا على فرنسا ، وانه واثق من ذلك ، فكان هذا سببا لتيهه وفخره .

واستاءت الملكة لموقفه ولكنها كظمت حقدها ، واعلمته ان الملك قد عزم على انقاذ المملكة من اعدائها الهيكونوت فاجابها :

ـ لقد علمت بذلك ، وانا مسرور من صدور هذا القرار وان كان قد تأخر قليلا .

ـ ان اختيار الزمن والوقت من حق الملك ايها الدوق .. هل يستطيع الملك الاعتماد عليك ؟

فاجابها بالايجاب ، ولما سألته عن المهمة التي يريد القيام بها ، اجابها القبض على كوليني .. وقتله ، فقالت :

ـ لك ذلك .. بشرط ان تسمع دقات اجراس سانت جرمين .. وهي الاشارة المتفق عليها .

ـ اهذا كل ما تريدين يا سيدتي ؟

ـ بل هناك شيء آخر ، اريد ان تعرفه ما دمت من انصار العرش ، وهو الاحتياطات التي اتخذت للمحافظة على اللوفر .

وارسلت خلف نانسي قائد الحرس تسأله عن عدد من يوجد من الجنود في اللوفر ، فاجابها : يوجد ثلاثة الاف ، واثني عشر مدفعا للقتال .. قد ادخلتها سرا الى القصر .

فاصفر وجه الدوق لما علم بهذه القوة ، وعاد يبالغ باحترام الملكة . وعادت الملكة تسأل نانسي :

ـ لا بأس من تطمين الدوق ، فقل ما جاءنا بالبريد منذ ايام ؟

فذهل نانسي من هذا السؤال ولكنه قال معترفا :

ـ لقد وصلت اوامر الملك الى حكام الاقاليم فاخذوا يرسلون الجيوش الى باريس ، وسوف يصل اليوم الى العاصمة ستة الاف فارس وبعد ثلاثة ايام يصل عشرون الف اخرى لخدمة الملك .

صعقت هذه الاخبار الدوق دي كيز ، وقال في نفسه :
ـ لقد فشل مشروعنا ، ولم يعد باستطاعتنا عمل شيء في الوقت الحاضر .

والتفتت الملكة الى نانسي تقول له :
ـ ستكون انت قائد الحرس في اللوفر ، فوزع جنودك حوله، واطلق النار حالا على كل من يحاول الهجوم عليه .. مهما كانت شخصياتهم .

اخذ الدوق عندئذ يعرض خدماته على الملكة ، ويؤكد ولاءه للعرش، وسألها ان تستقبل الشخص المكلف بقتل الاميرال ، فوافقت ، وكان رجلا فظيع الهيئة كبير الجسم ، فشجعته الملكة في مهمته ، وامرته بالانصراف ، فاخبرها انه يريد مغادرة باريس بعد هذه الحادثة ، وطلب منها امرا بالخروج من احد ابوابها ، مع ثلاثة من اصدقائه .

فكتبت الملكة الامر واعطته له .. كما اعطته كيسا من الذهب ، فذهب لشأنه .

ثم غادرت غرفتها مع الدوق حيث اجتمعت الى الذين كانوا ينتظرونها، واتفقت معهم على البدء في المذبحة في الوقت المعين .

ولما انتهت هذه الجلسة غادر الدوق دي كيز اللوفر الى قصره، حيث اخذ يستقبل زعماء الاحياء ، لترتيب المذبحة ، وتعيين الفرق المخصصة لكل حي .

ولما انتهى الاجتماع خرج زعماء الاحياء لشؤونهم ، فيما مضى الدوق يفكر في فشل مشروعه ، وانهيار خططه .

★ ★ ★

وفي الساعة التاسعة من تلك الليلة ، دخلت امرأتان الى سجن التامبل،

فذهب بهما الحارس الذي ادخلهما الى الجناح الخاص بالحاكم •

وكان الحاكـم بانتظارهما •• وقد اعفى خدمه من خـدمته ليتفرغ للمرأتين •

وكان قد اسرف في الشراب قبل دخولهما فمضتا تقدمان له القدح بعد القدح ، وتتوددان اليه ، وتقبلانه ، حتى بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، حيث فقد الحاكم رشده من كثرة السكر فسقط ارضا لا يعي •

وعندئذ جمدت المرأتان في مكانهما ، وبدت عليهما امـارات الرعب والفزع •

- ٧ -

باردالیان يخرج من السجن

عاد هنري دي مونتمورانسي الى قصره في مونمارتر ، غاضبا ناقما ، بعد ان ابلغه الدوق دي كيز ، انه تقرر الغاء الهجوم على اللوفر ، في الوقت الحاضر .

ولكنه ما لبث ان عزى نفسه ، حين كلفوه بمهمة ثانية وهي مهاجمة قصر شقيقه فرانسوا ، الذي يعتبرونه صديقا للهيكونوت ، وقتله والقضاء على انصاره واعوانه .

ولما وصل الى قصره ، اخذ يتفقد حاميته ورجاله ، فوجدهم على اتم الاستعداد للمعركة المقبلة .

فاذا ذهبنا الى حانة (كاتي) ، نجدها قد اقفلت بابها بعد ان صرفت زبائنها في الساعة التاسعة مساء .

وعند منتصف الليل فتحت الباب ثانية .. واخذ النساء يردن الى الحانة ، فهذه راقصة ، وتلك متسولة ، وهذه عرجاء ، وتلك حدباء .

وكانت (كاتي) تقوم باكرامهن ، وتوزع عليهن الخمرة والنقود .. وبعد ان تحدثت اليهن مليا ، غادرن الحانة جميعا .

وبعد ان ذهبن ، فتحت كاتي خزانة ، اخرجت منها كيسا يحتوي على ثلاثمائة ريال ، هي كل ما كانت تملكه .. ثم وقفت تصغي .

وفي الساعة الحادية بعد منتصف الليل ، اقبلت جماعة جديدة من النساء على الحانة ، وكن من البنات الجميلات ، اللواتي يرتدين الملابس الثمينة .

جلسن يشربن ويغنين ، حتى افرغن كل ما عند كاتي من الخمور .

ثم اخذت كاتي توزع عليهن ما معها من النقود ، حتى لم يبق معها شيء ، فغادرن الحانة في سبيلهن .

فلما انصرفن ، تقلدت كاتي خنجرا وغادرت الحانة ، وقد دهشت لهدوء الليل في باريس ، وعدم سماعها لصوت من الاصوات .

وبعد قليل شاهدت شخصا يتقدم عشرين رجلا ، عليهم مظاهر النعمة، ومعه ورقة بيده .

فجعل كلما مر ببيت مذكور اسمه على الورقة ، رسم علامة على بابه بالتباشير .

وقد فعل ذلك اكثر من مرة ، وكاتي تراقبه ، وتراقب الذين معه .

فلما تقدمت الى حي آخر ، شاهدت جماعة اخرى تعمل مثل ذلك وكانوا جميعا يسيرون هادئين ساكتين ، حتى لا يوقظوا احدا من النائمين.

وفي تلك الساعة كان الدوق دي كيز في ردهة قصره الكبرى مع رجاله .

والدوق دي اومال واقفا امام قصر الاميرال كوليني ومعه مائة من المسلحين .

كما كان هنري دي موتتمورانسي على رأس ثلاثمائة رجل من اعوانه ينتظرون الاشارة المعلومة .

وكذلك كان غيره من المكلفين بالقيام بالمجزرة الرهيبة .

ولكن ما لنا ولهؤلاء .. علينا ان نعود الى سجن الباستيل ، الذي كان مسرحا لحادث عظيم بين الساعة الثانية والثالثة من هذا الليل .

فقد جاء رينيه الفلكي الى سجن الباستيل يحمل ورقة مختومة بخاتم الملك .

وبعد ان كتب عليها ما اراد قدمها للحاكم ، فبهت الحاكم وذعر ، وقال له :

ــ لا ادري اذا كانت الآلة المذكورة تصلح للعمل بعد ان اهملنا استعمالها هذه السنوات العديدة ، خصوصا وقد الغى الملك هذه الفظاعة، ولم نعد نحاولها ابدا .

ــ لا يقلقنك تعطيلها ، فأنا اتولى اصلاحها ، المهم ان تجمعني بالرجل الذي يتولى ادارتها .

وذهب به الحاكم الى غرفة الرجل المسئول ، ومضى لجلب الاسيرين.

وكان بارداليان وولده يتحدثان حين دخل عليهما ضابط ، وطلب منهما ان يتبعاه ، فظنا ان ماري توشيت قد تدخلت للافراج عنهما ، او ان حاكم السجن قرر نقلهما الى غرفة اجمل واشرق .

ولكن الضابط راح ينزل بهم في سلم ارضي وهو ينظر اليهما نظرة المشفق ، حتى وصلوا الى سرداب يبلغ طوله عشرين قدما ، وفي آخره سلم يصعد منه الى اعلى .

وصعدا الرجلان السلم وعد بارداليان درجاته فاذا هي تسع ، وعند الدرجة التاسعة وجدا بابا قد فتح من تفسه فدخلاه ، وكان الظلام حالكا .

فأمسك الواحد منهما بيد الآخر ، وما لبثا ان ادركا انهما يسيران على صفائح من الحديد .

واخيرا اصطدما بجدار وجداه من الحديد ايضا ، فأخذ بارداليـان الاكبر يفحص المكان ، ويسير من هنا ويتقدم من هناك ، ثم عاد لولـده وهو يقول :

ــ نحن في قفص من الحديد يا بني •

فادرك كل منهما انهما سيموتان جوعا هنا •

ولكنهما لاذا بالصمت حتى لا يثير احدهما شجون الآخر •• وبعـد قليل امسك بارداليان بيد ولده وقال :

ــ يبدو انه قد انتهى دورنا في هذه الحياة يا بني •

فاجابه الابن :

ــ من يعلم •

وقرر الرجلان ان لا يموتا هذه الميتة ، وان ينتحر بالمهمازين فان في كل واحد منها قطعة من الحديد •• وامسك كل واحد منهما بمهماز في يده بعد ان خلعاه احذيتهما بانتظار الساعة الحاسمة •

* * *

سمعا صوتا بعد لحظات ••

وكان الذي سمعاه صوت آلة تعد للعمل •

واضيئت الغرفة الحديدية في هذه اللحظة •• فأسرعا يفحصان هـذا القفص ، فلم يجدا الباب الذي دخلا منه ، فادركا انه سري يفتح ويغلـق بطريقة اوتوماتيكية •

بحثا ما حولهما فلم يجدا غير الحديد في كل مكان •• وشاهدا الارض محدودبة من الجهات الاربع ، وفي الوسط حفرة ، لو ساروا في الظـلام

لسقطوا فيها .. ولما اخذا بفحصها وجدا انها مصنوعة من الحديد، وليست عميقة ، ولا يزيد عمقها عن خمسة اقدام .

والواقع ان رينيه الفلكي ، وهذا ما كان يجهله الرجلان ، قد ذهب به الجنون الى انه يستطيع ان يعيد ابنه ماربلياك الى الحياة ، اذا عصر جسم باردالیان واخذ دمه .

فكان ان اخذه الى هذا القفص الحديدي ، الذي يهبط سقفه بحركة من الخارج ، فلا يزال يهبط حتى يلامس ارض القفص الحديدي ، ويعصر الرجلين عصرا ، فينزل دمهما في الحفرة ، فيأخذ الفلكي منها ما يشاء من الدم ، ليعيد بواسطته ابنه الى الحياة .

ولما بدأ السقف يهبط ، نزل الرجلان الى الحفرة ، بعد ان لم يعودا يستطيعان الوقوف ، وأدركا انها النهاية ، وتأهبا للانتحار .

★ ★ ★

اخذ جرس سانت كاترين يدق بعد الساعة الثانية ، واخذت الاجراس الاخرى في العاصمة تدق بدورها ، وبدأت باريس تسمع صوت الرصاص، وانين الجرحى .

وصاح هنري دي مونتمورانسي برجاله :
ـ هلموا بنا الى قصر فرانسوا .. فقد دنت الساعة .

وكذلك زحف زعماء الاحياء والحارات لعملية الذبح الفظيعة التي لوثت باريس ، والتي ذهب ضحيتها جماعات كبيرة من الهيكونوت، باسم الدفاع عن الدين ، والدين براء من الدافعين اليها ، والقاتلين ، لان العملية

كانت عبارة عن مشاحنات سياسية ، واغراض حزبية ، اتخذ الدين ستارا لها .

وكان الملك لما توالى قرع الاجراس ، قد ادرك مغزى ذلك ، فاستبد به الذعر ، واصفر وجهه ، وخارت قواه .. وخيّل له انه السبب في كل المجازر ، بسبب كلمة خرجت من فمه ..

وخرج من غرفته خائرا حزينا ، لا يدري ما يفعل ، فشاهد امام رواقه خمسة من الهيكونوت موتى ، وقد ذكرنا ان الملك طلب من الهيكونوت حراسته ، فكان ان قتلهم المتعصبون فتقدم خطوة فشاهد فتى من الهيكونوت يدافع عن نفسه ضد خصومه ، ثم سقط ميتا قبل ان يصل الملك اليه .

ولما تقدم خطوة اخرى شاهد امرأتين من الهيكونوت مزقتهما الخناجر .

صاح مذعورا وترك الرواق وهو يصيح :

ــ لا اريد قتلا ولا دما .

ولكنه ما كاد ينزل في سلم الرواق ، حتى شاهد ضحايا آخرين ، ولما وصل الى ردهة متسعة ، شاهد عشرين من الهيكونوت من رجال ونساء وهم في ملابس النوم ، وخصومهم حولهم يريدون قتلهم .

فلما شاهدوا الملك حسبوه قادما لانقاذهم ، وصاحوا يقولون له :

ــ رحماك نحن ضيوفك .. وقد اكلنا على مائدتك ..

ولكن خصومهم عاجلوهم قبل ان يصل الملك اليهم .

وبدأ الملك عندئذ يضحك تلك الضحكة التي تسبق نوبته ، وفر هاربا لا يعرف اين يذهب ، حتى وصل الى قاعة السلاح فوقف مليا .

وفجأة فتح الباب وظهر من خلفه رجلان قد تمزقت ثيابهما ، وخلفهما خمسون رجلا يطاردونهما .

وعرف الملك في الرجلين زعيما الهيكونوت هنري دي نافار زوج اخته ، والبرنس دي كونديه .

فصاح بالمهاجمين ليغادروا القاعة ، ووقف بينهم وبين الرجلين فتركوهما .

واخذ الجميع على الاثر يسمعون صياح الجرحى ، وانين المصابين .. وهتاف الجماهير الثائرة ، ضد الهيكونوت .

فأخذ عندئذ ملك النافار والبرنس دي كونديه يبكيان لنكبة قومهم .

★ ★ ★

في الساعة التي وقفت فيها كاترين على شرفة اللوفر تنتظر دقات الجرس ، كانت (كاتي) صاحبة الحانة ماضية في سبيلها ، فلما وصلت الى زقاق لا منفذ له ، وقفت تغني اغنية معروفة ، فأقبل عليها جمع عظيم من النساء يبلغ الثلاثمائة امرأة .

وكان هذا الجيش مؤلفا من النساء اللاتي جمعتهن صديقات (كاتي) من المتشردات والمغنيات والمتسولات ، وبنات البغي على اختلافهن .

ومن المشوهات من النساء ، ممن تقدم لنا وصفهن قبلا ، فمضت (كاتي) بهن ، وكان بعضهن يحمل سلاحا ، واما الباقيات فقد كن يعتمدن على اسنانهن واظافرهن ، عندما تدعوا الحاجة الى الحرب والقتال .

فلما وصلن الى امام سجن الباستيل ، وقفن ينتظرن الفرصة لانقاذ الفارس الجميل بارداليان .

اخذت (كاتي) بترتيب صفوف هذا الجيش الغريب •
فوضعت في الصف الاول حملة البنادق ، ثم حملة الخناجر ، فقضبان الحديد فالعصي ، وفي الصف الاخير من لم يكن يحملن سلاحا •

ثم قالت لهن :
ــ عليكن بالحذر والطاعة العمياء ، فمتى دخلت الى سجن الباستيل، فادخلن في اثري •

وقد اخذن في هذه اللحظة يسمعن دق الاجراس •• وتلاه دوي البنادق •

وفتح باب السجن في هذه اللحظة ، وظهرت على عتبته صديقتا الحاكم •

فصاحت كاتي بجيشها :
ــ هيا الى الامام •

ودخلت امامهن ، فسار الجميع في اثرها •
قالت احدى الفتاتين :
ــ ان المفاتيح معي •

وقالت الثانية :
ــ ولقد اقفلنا الابواب على الجنود •

وقالت كاتي :
ــ سنذهب توا الى سجن بارداليان •• فأين الطريق ؟
ــ من هنا •
ــ اذا هيا بنا •

فلما كن في الطريق اعترضهن بعض رجال الحرس ممن لم تعرف المرأتان بوجودهم ، فحدثت معركة بين الفريقين ، تغلب فيها النساء على

الحراس الذين كانوا اقل منهن عددا ، فقتل من قتل من الطرفين ، وسجنت كاتي البقية الباقية من الحراس الذين نجوا من الموت ، ولـم يكونـوا يزيدون عن ضابط وحارسين •

وكان ان قتلت في اثناء المعركة الفتاتان اللتان فتحتا الباب لكـاتي ، فاخذت منهما المفاتيح ، ولما لم تكن تعرف مكان بارداليان ، فقد سألـت الضابط الذي اسرته عن مكانه ، فلما تقر في وجهـها وشتمها ، طعنتـه بخنجرها فهوى ارضا ، فسألت احد الحارسين ، فرفض فقتلته •

وامـا الحارس الثاني ، فوافـق على الذهاب بها الى حيث يوجـد بارداليان وابنه •

ولما وصلت كاتي الى مكان القفص الحديدي ، شاهدت رجلا ضخـم الجثة ، يدير دولابا كبيرا من الحديد ، فسألت الحارس :

ـ من هذا ؟

ـ انه مأمور الآلة الميكانيكية •• وهو يديرها الآن •

ـ اين هما الآن ؟

ـ انهما داخل القفص الذي ترينه ، والسقف يهبط عليهما •

وكـان ان انقضت (كاتي) على الرجل الضخـم وامسكت بعنقه ، واسرع بعض النسوة لنجدتها ، والخناجر بايديهن ، فذعر الرجل ، وصاح:

ـ رحماك ، ماذا تريدين ؟

ـ افتح الباب او اغمد خنجري في عنقك •

فقال وقد امتلأ قلبه رعبا :

ـ اديري هذا اللولب فيفتح الباب •

ففعلت •• ففتح الباب ، وظهر من خلفه رجلان ، فصاحت تقول :

ـ لقد تمكنت من انقاذهما قبل فوات الاوان •

واخذت تضحك وتبكي من الفرح •
وصاح باردالیان وابنه في صوت واحد :
ــ كاتي ••

ولما خرجا الى الرواق وشاهدا جموع النساء ادركا ان (كاتي) قــد جمعت جيشا من الفاجرات لانقاذهن ، واغتصبت السجن ، وحــاربت حراسه ، حتى تمكنت من ذلك ، قبل ان يهلكا بلحظات •

وعندئذ اخذ كل واحد منهما يقبل كاتي على خديها ، وقد لاذ جميع النساء الباقيات بالصمت ، ينظرن الى هذا المشهد المؤثر •

واخيرا قال باردالیان الاكبر :
ــ هلموا بنا والويل لمن يقف في طريقنا •

فاجابه ابنه :
ــ هو ما تقول •• لقد خرجت الاسود من مرابضها فلتحذر الذئاب •

ولما اصبحا خارج السجن ، سقطت كاتي ارضا ، من اثر الجراح التي اصابتها ، فلما خف باردالیان لمالجتها ، وجد انها فارقت الحياة •

فتنهد باردالیان وهو يقول :
ــ لقد ماتت في سبيلنا •

★ ★ ★

لما خرج باردالیان هو وابوه من السجن ، وشاهد الثائرين يحملــون المشاعل ويطاردون الهيكونوت ، قال لابيه :
ــ هلــم بنا الى قصر الامــيرال كوليني ، فاني اخاف ان يقتلــوا ماريلياك •

وفيما كان الفارسان يسرعان نحو القصر ، كانا يلاقيان بين وقت وآخر جماعة من الثائرين تتصدى لهما ، فيضطران احيانا الى ردها بسيفيهما ، واحيانا الى الهرب من وجهها .. حتى بلغا قصر كوليني فوجدا النـاس يحيطون به من جميع اطرافه .

ولما اختلطا بالناس في ردهة القصر الواسعة ، سمعا صوتا ينادي رجلا في القصر ويقول له :

ــ الم تفرغ من عملك ؟

فالتفت باردليان الى صاحب الصوت فعرف فيه الدوق دي كيز .
وشاهده يشير الى نافذة من نوافذ القصر .

★ ★ ★

كان رجال الدوق دي كيز وانصاره ، قد قضوا في الحي الذي يسكن فيه الاميرال على اكثر من مائتي ضحية من الهيكونوت قبل مجيئه .

ولما وصل هاجموا قصر الاميرال ، ودخل رجل ضخم الجثة الى غرفة الاميرال كوليني ومعه اثنا عشر حارسا ، فقتـل الاميرال بحربة يحملهـا بيده ، وجر الجثة من السرير ليقطع رأسه ، ولما فعل ، سأله الدوق دي كيز اذا كان قد انتهى ، فاجابه بالايجاب .

فقــال :

ــ الق الجثة للجماهير ليشاهدها الناس .. فامتثل القاتل والقى الجثة من النافذة ، فدنا دي كيز منها ، وبعد ان فحصها قال :

ــ انه هو بالتأكيد .. لقد طالما حدثني قلبي باني سأدوسك بقدمي .
وعندئذ سمع صوتا يقول له :

ــ تبا لك من جبان .
ذعر الناس لهذه الاهانة ، والتفتوا ، من يجرأ على اهانة الدوق وهو محاط بأعوانه ورجاله ؟

شاهدوا بارداليان ، وقد اخترق الصفوف وتقدم من الدوق وقال له :
ــ لقد كانوا يلقبون اباك بالمشجوج ، واما انت فستلقب بالمصفوع .
ثم رفع يده فصفعه على وجهه صفعة قوية القته ارضا .

وقعت الاهانة وقع الصاعقة على رجاله وهاجوا كالمجانين ، وجرد الجميع سيوفهم وخناجرهم ، وصاحوا يقولون :
ــ اقتلوه .
وسحب بارداليان سيفه ليدافع عن نفسه .
ولكنه احس في هذه اللحظة ان يدا قوية قد حملته ورفعته الى غرفة مظلمة من باب مفتوح .

ثم اقفل الباب ولم يعد يشاهد شيئا .
كانت اليد يد ابيه ، وقد اسرع الى انقاذ ابنه لما شاهد الخطر المحدق به .

ولكن الناس ما لبثوا ان هاجموا الباب المقفل ، يريدون تحطيمه وتمزيق الرجل الذي اهان الدوق .
وصعد بارداليان وابنه سلما ، وهما لا يعلمان الى اين يذهبان .
لقد كانا لا يعرفان قصر كوليني ، ولا يدريان شيئا من اروقته ومعابره .
وقال دي كيز لما تمالك نفسه لاحد رجاله :
ــ اصعد الى القصر بخمسين رجلا ، وابحث عن الرجلين حتى تقبض عليهما .

– ٨ –

رجلان في الشارع

كان قاتل الاميرال كوليني لا يزال في القصر ينظف رأس الاميّرال بعد ان فصله عن جسمه ، واخذ ثمن جريمته من الدوق دي كيز .

وفيما هو في شأنه شاهد (مورفر) يدخل الى القصر باحثـا مفتشا فسأله عن شأنه ، فقال له :

ــ اني افتش عن رجلين من الهيكونـوت كنت اراقبهما فـي سجن الباستيل ، ثم اختفت اثارهما ، ولا بد ان يكونا قد اتيا الى هذا القصر .

فقال المجرم :

ــ هل احدهما كهل طويل القامة ، والآخر شاب في مقتبل العمر ؟

ــ نعم .

ــ انهما في القصر والجنود يطاردونهما .

فأسرع مورفر مندفعا للبحث عنهما . فيما كان بارداليـان وابنه لا يعلمان اين يسيران ، لشدة الظلام ، ولا يجـدان منفذا يهربان منه الى الخارج .

وسمعا بعد قليل صوت كسر الباب ، فأدركا ان الجنود في أثرهما .

وقال الاب :

ـ يبدو اننا قد وقعنا في الفخ ... ولا سبيل الى النجاة .

فقال الابن :

ـ لقد كنا في مكان أسوأ منه منذ ساعتين ، ثم نجونا فلا تقنط .

وأدركا بعد ان فحصا المكان انهما في غرفة لخزن الحبوب ، لها نافذة واحدة فقط .

وأمام هذه النافذة كانت تقوم نافذة اخرى من ابنيــة القصر ، وبين النافذتين ممر ضيق يؤدي الى الحديقة ، فقــال بارداليان الاكبر بعد ان فحصها :

ـ هذا هو سبيلنا للفرار من هذا المكان ، ولكننا بحاجــة الى لوح من الخشب .

ولما لم يجدا ما يطلبان قال الابن :

ـ لنثب الى النافذة الاخرى فان المسافة قصيرة بينهما .

وقفز الاثنان الى النافذة فوصلا بسلام ، وكان ان وصل الجنود الى مخزن القمح في هذه اللحظة فلما لم يجدوا فيه احدا ، صاحــوا : لا بد انهما فرا من هذه النافذة .

ـ لنذهب الى الدوق تتلقى اوامره .

وكان قاتل الاميرال لا يزال في البناية وقد غسل رأس الاميرال واخذ يلفه بقطعة من القماش .

ولما حاول مغادرة البناء ، وجد بابه الكبير مقفلا ، فدهش وصاح كمن يتحدث الى نفسه :

ـ من اقفله ؟

وفجأة ظهر امامه بارداليان وابنه .

ودنا منه الابن يسأله :

ــ هل انت الذي القيت جثة الاميرال من النافذة ؟

فقال :

ــ نعم انا الذي فعلت ذلك فما الذي تريده مني ايها الهيكونوتي ؟

ــ وهل انت الذي قتلته ؟

ــ نعم .

ــ بماذا قتلته ؟

فأشار الى حربة قد صبغها الدم ، ثم ضحك ساخرا وقال :

ــ وسأقتلكما بمثلها ايها الكافران .

واندفع نحو الباب يريد مناداة الجند فأمسك به بارداليــان الاكبر يمنعه ، وجره الى وسط الغرفة .

ــ علينا انقاذ البلاد من وحش مثلك ، فتعال الى المبارزة .

وامسك القاتل بسيفه ، اما بارداليان الاصغر فقد امسك بالحربـة القاتلة ، وقد ظن المجرم انه بالغ ما يريده من هذا الشاب ، فقد كان سيفه اطول من الحربة .

ولكن بارداليــان كان امهر حملـة السيف في ذلك العصر ، فما زال بخصمه يدفعه الى باب الغرفة بحربتــه ، رغم طول سيف خصمه ، حتى الصقه به ، ثم طعنه بالحربة طعنة نفذت من جسمه الى الباب نفسه فسمرته به وجعلته معلقا فيه .

ثم غادر الرجلان القصر الى الحديقـة ، وكان بارداليــان الاكبر قد شاهد ورقة تسقط من جيب القاتل في اثناء المبارزة فتناولهــا ووضعها في جيبه .

وعاد (مورفر) بعد قليل الى القصر بعد ان بحث طويلا عن الرجلين فلم يعثر عليهما ، فلما شاهد قاتل الاميرال مسمرا في الباب ، ذعر من هذا المشهد ، وادرك ان هذا من صنع بارداليان وابنه ، وانهما لا بد قد غادرا

المكان ، فأسرع بدوره في الخروج بعد ان حمل رأس الاميرال معه ، لعله يفيد منه .

ولما اصبح الفارسان في الشارع قال الابن لابيه :

هلم بنا الآن الى قصر فرانسوا دي مونتمورانسي .

ـ ولكن فرانسوا لا خطر عليه ، وانما الخطر علينا ، فلماذا لا نبتعد عن المشاكل ، ونختبىء بعض الوقت ؟

ولكن الابن قال بعناد :

ومشى الاب بجانب ابنه ، دون ان يقول شيئا ، وان كان يعلم في قرارة نفسه انهما سوف يلاقيان اهوالا في الطريق .

★ ★ ★

وقد صدق الاب فيما توقعه ، فقد كانا يشاهدان بين كل لحظة واخرى جماعات من المتعصبين يفتكون بخصومهم ، او يحرقونهم ، كما شاهدا (بيزو) احد رجال الاحياء ، يحمل شخصا بعد ان قتله ويلقيه فوق النار المشتعلة .

قال بارداليان الاكبر لابنه :

ـ هيا بنا نهرب ... فلست أطيق النظر الى هؤلاء الوحوش .

ولما اقتربا من قصر مونتمورانسي شاهدا عددا كبيرا من النـاس حوله .

وشاهدا منزلا قريبا من القصر ، قد اقتحمه الناس ونهبوا ما فيه ، ثم انصرفوا عنه الى منزل آخر ، فيما ظل كيرسي في المنزل بعد ان غادره المجرمون .

وقال بارداليان الاكبر :

ــ هلم نغادر هذا المكان .

فقال الابن :

ــ اريد ان اعرف ما يفعله كيرسي في هذا المنزل فانه لا يزال فيه .

ودخل الرجلان الى المنزل ، فشاهدا جثث اصحابه ملقاة هنا وهناك.

وقد لحظا وهما يتنقلان من غرفة الى اخرى ، ان الاثاث الثمين قد بقي في مكانه ، وان ما ألقي الى الخارج كان الاثاث العادي الذي لا قيمة له .

وفي غرفة اخرى شاهدا كيرسي واحد اعوانه ينهبان ما في الخزائن من الحلي والجواهر .

حتى لقد تقدما الى جثة صاحب المنزل فانتزعا قلادة ذهبية كان يضعها حول عنقه ، وقطعا اذني زوجته ، ليأخذا اقراطها .

واخيرا قال كيرسي لرفيقه :

ــ هيا بنا نغادر هذا المكان ، فلم يبق فيه ما ينهب .

وقبل ان يتحركا من مكانهما سقطا فوق الجثث لا حراك بهما .

فقد ضرب بارداليان الابن كيرسي بقبضة يده ضربة القته ارضا ...

وقضت عليه اذ هشمت فمه ، واقتلعت عددا من اسنانه .

وقتل الاب الرجل الآخر بقبضة بندقية عثر عليها في الغرفة .

وغادر الرجلان المنزل بعد ذلك ، يحاولان اجتناب الاشتباك مع احدى هذه العصابات المجرمة حتى بلغا عطفة ، فشاهدا امامهما عصابة كبيرة مسلحة لا تقل عن الخمسين رجلا ، يتقدمهم كيرفر الكتبي ، وكان يحمل حربة ، شك في رأسها رأس شخص ما كاد يراه بارداليان وابنه حتى عرفا فيه رأس العالم اراميس الذي انقذاهما مرة في شارع مونمارتر ، وانقذاه قبلها حين كان في العربة مع ماري توشيت صديقة ملك فرنسا .

وكان ان تحول الرجلان الى زقاق ضيق تجنبا للاشتباك مع هذه العصابة ، وحتى يفسحا لها الطريق لتمر بسلام •

ولما مر (كيرفر) من امام بارداليان الابن نظر اليه هذا نظرة هائلة ، فذعر المجرم من هذه النظرة المرعبة ، والتفت الى رجاله يأمرهم بقتل الرجلين •

وما كاد يصدر امره هذا ، حتى اصابته رصاصة اخترقت صدره ، فخرّ على الارض صعقا ، وكان مطلق الرصاصة بارداليان الاكبر الذي انتزع البندقية من احد اعوانه ، واطلق عليه الرصاص •

وهاج على الاثر انصار (كيرفر) كالذئاب ، وهجموا على الرجلين في الزقاق الضيق ، ولكن الزقاق كان ضيقا كما قدمنا ، فلم يكن بالامكان والحالة هذه ان يصل الى بارداليان وابنه غير اثنين او ثلاثة منهم دفعة واحدة ، فكان الرجلان يقضيان عليهم بسهولة ، وكان ان تقدم نحو الزقاق احد الفرسان ، يلبس بذلة حمراء عليها شارة هنري دي موتتمورانسي ، فوثب عليه الابن وجره الى داخل الزقاق ، فذعر الفارس وحاول العودة بجواده ، فلم يوفق ، وضربه بارداليان بحسامه ضربة القته ارضا ، ولما حاول الاب قتل الجواد قال له بارداليان الابن :

ــ لا تفعل فهذا (كاليور) ، وهو الذي اهداني اياه هنري دي موتتمورانسي لما انقذته من قطاع الطرق •

وضحك الرجلان ،ّ واسرعا في الفرار ، وقد ادركا ان القتلة لن يستطيعوا ادراكهما قبل اخراج الجواد من الزقاق الضيق ، وهذا يحتاج الى دقائق بالتأكيد •

وبعد لحظات صاح الابن :

ــ لقد وقعنا ••• فليس لهذا الزقاق منفذ كما يبدو •

وقال الاب :

ــ لقد تذكرت هذا الزقاق ومررت به قبلا .

وعندئذ فتح باب في آخر الزقاق وظهرت على عتبته امرأة ، فصاح الرجلان :

ــ هيكوت .

ولم تكن هيكوت هذه غير زوجة صاحب فندق دفينير الذي كانا يقيمان فيه دائما قبل هذه الحوادث .

واسرع الرجلان بالدخول من الباب ، وكان هذا الباب يؤدي الى رواق الفندق ، فلما شاهد (لاندري) صاحب الفندق الرجلين صاح من اليأس قائلا :

ــ انهم سيهاجمون فندقي بالتأكيد بعد لحظات .

فقالت له امرأته :

ــ هو ما تقول وعلينا ان نسرع بجمع ما لدينا من المال والمجوهرات ونهرب منه حالا .

وقال بارداليان الكبير :

ــ سوف اعوّض عليك كل ما تخسره فلا تخف .

أنّ صاحب الفندق أنين من طئمن في قلبه ، واسرع بارداليان فقبل صاحبة الفندق وهو يقول لها :

ــ اني لن انسى فضلك ما حييت .

واسرعا بالخروج ، واسرع خلفهما صاحب الفندق وامرأته ، واقبل الثائرون بعد قليل فلما لم يجدوا فيه الرجلين ، نهبوا كل ما فيه ، وغادروه قاعا صفصفا .

★ ★ ★

سار الرجلان نحو قصر فرانسوا دي مونتمورانسي .

وكانت (هيكوت) قد وضعت على ذراع بارداليان الاكبر علامة خاصة ، مما كان يحمله الثوار ، فلم يتعرض لهما احد هذه المرة ، ظنا من الثائرين ، انهم منهم .

وكانا يشاهدان كثيرا من العصابات في طريقهم ، بعضهم يحمل جثث القتلى لطرحها في نهر السين ، والبعض الآخر يجرها في الشوارع ليلقيها في النار .

وفجأة ضغط الاب على ساعد ابنه ، وقال له :

ــ انظر ... هذا هو الكونت اسبرموت قائد حرس هنري دي مونتمورانسي ، ويدل وجوده في هذا المكان على انهم يريدون شرا بصاحبنا فرانسوا دي مونتمورانسي .

وفيما كان الرجلان ينظران الى اسبرمونت هذا ويراقبان حركاته ، اقبلت امرأة من الهيكونوت تطلب حمايته ، من الذين يطاردونها ، فضربها اسبرمونت بسوطه ، وحرّض كلبته عليها ، فأسرعت كالذئب الكاسر ، تنهش عنقها بأنيابها ، فانقطع صوت المرأة ولم تعد تستغيث او تطلب الرحمة .

وقد حدث هذا بسرعة مذهلة لم يستطع معها احد الرجلين عمل شيء لانقاذ المرأة .

وكان ان هجم الرجلان على القاتل ، وصاح بارداليان الابن به صيحة جعلته يستدير ليرى ما الخبر ، فلما شاهد الرجلين فرح فرحا عظيما ، ورفع سوطه ، ولكن الابن انقض عليه كالصاعقة ، وانتزع السوط منه ، واخذ يلهب وجهه به ، حتى اخذ يصيح ويعول .

وابتعد اسبرمونت قليلا عن السوط واستنجد بكلبته ، ولكن ما حدث فجأة كان مذهلا عجيبا ، فقد انقض عليه في هذه اللحظة كلب هائل

صرعه ، والقاه ارضا ، وكان هذا الكلب (بيبو) كلب بارداليان ، الذي احب كلبة اسبرمونت ولم يعد يفارقها •

ولما حاولت الكلبة الهجوم على بارداليان طعنها الاب بخنجره فقتلها قبل ان تصل اليه •

حدث كل هذا بسرعة مذهلة كما قدمنا ، وقبـل ان يتمكن رفـاق اسبرمونت من انقاذه ، ولما شاهـدوه ميتا امامهم ، اخـذوا ينـذرون ويتوعدون ، وهم لا يجرأون على الاقتراب من الرجلين •

ومضى الرجلان في سبيلهما ••• وبيبو خلفهما يرد عنهما عدوان من يريد الاعتداء عليهما ••• حتى وصلا الى زقاق دخلا فيه مسرعين •

— ٩ —

الهناء بعد الشقاء

دخل الابن اولا الى هذا الزقاق ... وهو لا يعرف طريقه فيه .
وتبعه ابوه حاملا سيفه وخنجره .
وسار (بيبو) الكلب في المؤخرة .
وسار خلفهما المجرمون وهم يتوعدون وينـذرون ... وكان كلما اقترب احدهم منهما ارتفع السوط على وجه المتقـدم فالهبه وجرحه ورده الى رفاقه .
واما سيف ابيه فكان يصرع من يقترب منه فيسقط ميتا .
وفيما هما في هذا الحال سمعا دويـا هائلا ، ثم تلاه سقوط منزل ، فادركا ان هناك من وضع البارود في احد المنازل القريبة فدمره وهدمه .
وكان ان ارتفع الدخـان والغبـار ، فحجب الفريقين عن بعضهما ، فأسرع الرجلان يركضان في هذا الزقاق ، حتى وصلا الى المنزل المتهدم ، فشاهدا سلما امامهما فارتقياه ، فاذا به سلم لا منفذ له بعد ان سقط البناء حوله ، واذا هو يتحرك ويهتز ، فقفزا الى جدار قريب ، وفي هذه اللحظة سقط السلم الى الارض قطعا .

ونظر بارداليان الى ما حوله ، وما لبث ان انقبض صدره ، وارتجفت يده ، فقد شاهد فيما يلي الجدار الذي كان واقفا فوقه ، ساحة مليئة بجثث القتلى ، وحولها جموع من الرجال المسلحين ، يهجمون على الباب الاكبر للبناء ، بعد ان تهدمت اطرافه ، ولم يبق غير الباب قائماء كما شاهد امام الباب ثلاثة رجال يدافعون عن انفسهم .

عرف بارداليان حالا فيهم فرانسوا دي موتتمورانسي ، اما الذي كان يهاجمه فكان شقيقه هنري .

وعندئذ ادرك بارداليان ان القصر الذي تهـدم هو قصر فرانسوا ، وانه قد وصل اخيرا الى المكان المطلوب .

ولما شاهد بارداليان فرانسوا في هذا الموقف ، صاح صيحة مرعبة ، ارتجت لها الارض ، ذلك انه رأى حبيبته لويزا تقف وراء ابيها ، وقد انتثر شعرها حول رأسها ، وهي ترتجف من الرعب .

وكان الدوق هنري لما دقت الاجراس قد زحف الى قصر اخيه على رأس انصاره الذين كان يعـدون ثلاثمائة فارس ، وخمسمائة راجـل ، وسارت وراءهم ثلاث مركبات وضعت فيها براميل البارود لنسف القصر ومن فيه ، وخلف المركبات مئتا رجل من حملة البنادق .

وكان فرانسوا قد اخذ يعمل على تحصين قصره ، مخافة ان يؤخذ على حين غرة ، ولبث فيه لا يفارقه ، ينتظر ما سوف ينجلي عنه الموقف .

وكان عدد حاشيته قليلا اذا قيس بعدد رجال شقيقه، كانوا لا يزيدون عن ثمانين رجلا من الخدم ، وقد سلحهم جميعا ، ووقف يرقب ما سوف يقع .

اما (جان) فقد كانت لا تزال على جنونها الهادىء اللطيف ، تناجي حبيبها ، وتقول له انها في انتظاره .

فيما كانت لويزا تصرف نهارها بالقرب من والدتها ، وهي تشتغل بالتطريز ... وتسأل نفسها : اين بارداليان ... ولماذا لم يعد الى القصر .

وكان فرانسوا قد أوى الى فراشه في مساء يوم المذبحة ، فلما سمع دق الاجراس في الساعة الثالثة ، أفاق من نومه ، ولبس ثيابه ، وحمل سلاحه ، واسرع الى النافذة ، فسمع الضجيج والصياح ، وشاهد النار المشتعلة ترتفع الى السماء هنا وهناك في انحاء باريس .

واسرع عندئذ الى غرفة زوجته وابنته ، فوجدهما قد افاقتا من النوم ، فشجع ابنته ، وطلب منها ان ترتدي ملابسها وان تستعد للسفر .

ثم اسرع الى الردهات الخاصة بحاشيته ، فوجدهم جميعا قد افاقوا من نومهم ، وغادر اثنين منهم القصر لمعرفة ما يجري في باريس ، فعادا بعد ساعات يقولان له :

ــ مولاي انهم يقتلون الهيكونوت ... والقتل عام في كل مكان .

رجاه بعض من كان معه من الهيكونوت ان يذهب لمساعدة المنكوبين فوافق فرانسوا على ذلك ، وامر بفتح الباب للذهاب الى اللوفر ليطلب من الملك وقف المذبحة ، فاذا رفض ، قام مع رجاله بمحاربة الثائرين حتى النفس الاخير .

ولكنهم ما كادوا يفتحون الباب حتى وجدوا هنري دي موتتمورانسي قد احاط بالقصر مع رجاله .

وهجم رجال أخيه على الباب يحاولون كسره ، فردهم رجال فرانسوا بالرصاص والبارود ، فقتلوا ثلاثين منهم .

وامر هنري بوقف الهجوم وهو يكاد يختنق غيظا ، واخذ يدرس مع رجاله طريقة جديدة لاقتحام القصر ، وكان النهار قد اشرق .

وانجلت هذه الخطة اخيرا عن حفر الارض تحت الباب الكبير ،

ووضع كمية من البارود ، فلما انفجر البارود وتهدم الباب اندفع رجال هنري الى القصر ، وهنا بدأت المعركة بين الفريقين ... بالخناجر والسيوف والبنادق .

وحارب فرانسوا حرب الابطال ، وبحث عن اخيه فلم يجده ، لانه وقف خلف الصفوف ينتظر نهاية المعركة .

وكان رجال فرانسوا اقل من رجال اخيه اضعافا مضاعفة ، فما لبث هؤلاء ان تغلبوا عليهم حتى لم يبق مع فرانسوا غير عشرة رجال .

ثم اصبحوا خمسة وهو لا يزال يقاوم ويدافع على سلم قصره ، حتى لا يدع خصومه يدخلون الى القصر ويعترضون زوجته وابنته .

واحس فرانسوا اخيرا بالخطر ، وايقن انه مائت لا محالة .

ونظر حوله فاذا ابنته (لويزا) تقبل نحوه ، تحمل خنجرا بيدها وهي تقول :

ــ سوف ترى كيف تموت ابنة مونتمورانسي .

فقال ابوها :

ــ اسرعي الى امك ولا تتركيها وحدها .

ثم التفت فاذا هنري شقيقه امامه ... وهو يصيح برجاله :

ــ اتركوا هذا الرجل فهو لي .

صاح فرانسوا عندئذ صيحة منكرة وهجم على شقيقه وضربه بحسامه ضربة هائلة ، فخر هنري من الضربة ، وسقط سيف فرانسوا على بلاط السلم فانكسر ، ولم يبق بيد فرانسوا غير قطعة منه .

ونظر فرانسوا الى السماء وقد ايقن انه مقتول .

وقال له اخوه شامتا :

ــ لقد اصبحت في قبضت يدي ، ولتعلم ان (جان) زوجتك ستكون لي .

اسرع فرانسوا الى زوجته وابنته ، فضمهما الى صدره وقال لاخيه :
ـ انك لن تحصل علينا الا جثثا هامدة ايها السافل .
ثم انتزع الخنجر من يد ابنته ، وهو يقول :
ـ الوداع ... لاننا سنموت معا ... ورفع خنجره يريد ان يقتل به امرأته وابنته ثم نفسه ... لما حدثت المعجزة .

سمع ضجيجا عظيما عند السلم ... فالتفت ليرى ما الخبر ، فوجد اخاه قد فر من مكانه الى الشارع ، وشاهد جميع من كانوا في الردهة يهربون يزحم بعضهم بعضا وهم خائفين مذعورين .

★ ★ ★

وذلك انه فيما كان المارشال فرانسوا يهم بقتل زوجته وابنته ونفسه، اخذ الجدار الذي كان يقف عليه بارداليان الاكبر والاصغر ، يسقط على الذين وقفوا امام السلم يريدون اقتحام القصر ، فيصرع من يقف تحته ، ويجرح من يصيبه حجر من حجارته ، حتى زاد عدد القتلى والجرحى على العشرين في لحظات ، وحتى اخذ الناس يفرون من الموت الذي يهددهم .

وكان سبب اهتزاز الجدار ، ان بارداليان وابنه اخذا يدفعان حجارته باقدامهما تارة ، وبايديهما تارة اخرى ، ولما بدأ قسم من الجدار بالسقوط ، اضطرب توازن حجارته فأخذت تتساقط الواحدة بعد الاخرى ، فوقعت الكارثة .

وكان ان خلا المكان من الجميع ، ولم يبق فيه غير جثث القتلى ، وقد تبادر الى الاذهان الجميع ان الجدار ملغوم ... وانه سوف يقضي على من تحته .

وكان هذا الجدار يعلو على البناء الذي يقف فيه المارشال وابنته ، فاذا وثب المرء منه الى سقف البناية اصبح فيها .

وعندما ايقن البطلان بنجاح خطتهما ، وبهرب الناس خوفا من الحجارة والانفجار ، اخذا يستعينان على نزع الحجارة الباقية بخناجرهما ويقلبانها على الناس البعيدين فتتساقط عليهم كالقنابل وتفتك بهم فتكا ذريعا .

ولما لم يعد في المكان احد ... نزلا الى سطح البنـاء الذي كان فيه فرانسوا دي مونتمورانسي ، واخذ على الاثر ينهـال رصاص البنـادق عليهما فلا يباليا ، وكان وجهاهما قد اسود من الغبـار ، وايديهمـا قد احمرت من الدم ، وثيابهما تمزقت ، فكان كل من ينظر اليهما ينفر مذعورا خائفا .

فقال الابن عند ذلك :

– ارى ان علينا ان نجيب هؤلاء الناس على تحياتهم .

وانحنى فدفع قطعة من الحائط الى الجهة التي كان يقف فيها انصار هنري ، ثم وقف وهو يقول :

– لا بد اني قتلت وجرحت عشرين منهم .

فقال ابوه :

– لا بد لي ان افعل مثلك ايضا .

ودفع قطعة اخرى من الجدار ، فانقض على من كانوا خلفـه ، فعلا الصياح ، وارتفع صوت البنادق .

وبعد قليل انقطع الدوي ، ووضع هنري رأسه بين يديـه ، واخـذ يبكي من القهر بعد الفشل الذي مني به ، والضحايا التي اصابت انصاره .

وعندئذ اسرع الابن الى حيث كان المارشال فرانسوا واقفا ، فتقدم هذا اليه وعانقه وهو يقول :

ــ أني لن انسى ما فعلت يا ولدي •

ونظر الشفاليه الى ما حوله ، فرأى (جان دي بيانس) تبتسم ابتسامة هادئة وهي لا تفطن الى شيء مما يدور حولها •

وشاهد حبيبته لويزا مصفرة الوجه تنظر اليه باعجاب لا يوصف •

واحس بارداليان الابن بضعف عظيم ، ثم نظر الى المارشال ولويزا • وقــال :

ــ انك تدعوني يا مولاي بولدك الا تخشى ان اخطىء في معنى هذه الكلمة •

فقال المارشال لابنته :

ــ تولي اجابته عني يا ابنتي •

تقدمت لويزا مادة يدها اليه وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، وقالت:

ــ انك خطيبي وهذا المنزل منزلك •

ولم يعد الشاب يعي شيئا مما حوله ، وجثا على ركبتيه ، فأخذ يــد لويزا يقبلها وهو يبكي •

وبكى بارداليان الاب سرورا لبكاء ابنه ، واسرعت لويزا اليه فقبلته وهي تقول :

ــ يا ابي ••

★ ★ ★

وسمعوا ضجة في هذه اللحظة ، فاسرع الابن وثبا الى السلم ، فاذا هنري مقبل مع من تبقى من رجاله يريد مهاجمة القصر •

فقال وهو يضحك :
ــ اني الآن على استعداد لمحاربة اهل الارض والسماء .
وعرف بارداليان من المارشال ان هناك مركبة في الحديقة ، فقال لهم :
ــ هلموا بنا اليها .
فأجابه ابوه :
ــ تقدموني وسألحق بكم .
حمل فرانسوا امرأته ، وحمل بارداليان خطيبته ، فربطوا جوادين الى المركبة فصعدت اليها لويزا وامها .. وطلب بارداليان من المارشال ان يقود المركبة وان ينتظره عند باب الحديقة .

ولما عاد بارداليان الى القاعة يبحث عن ابيه لم يعثر عليه .

وفيما هو في شأنه هذا احس ان الارض تهتز تحت قدميه ، فقفز الى الحديقة ، وبعد لحظة سمع دويـا هائلا ، ثم شاهد البناء جميعـه ينقض ويسقط ارضا .. ثم اخذت الحجارة تتساقط على الارض بعد ان ارتفعت الى السماء .

وكان سبب ما حدث ، ان بارداليان الابن قد اخرج الورقـة التـي سقطت من قاتل كوليني ، ليعرف ما فيها فاذا فيها ما يلي :

« يؤذن لحامل هذا الامر ومن يصحبه من الرفاق ، بمغادرة بـاريس من اي باب ارادوا ، فانهم مسافرون لخدمة الملك » .

وكان الامر بتوقيع الملك نفسه .. ومختوما بخاتمه .

فتنهد بارداليان من الفرح ، ونظر حوله فشاهد رجال هنري يحاولون التقدم نحو القصر بحذر ، فأسرع الى مركبة مليئة بالبارود ، فنقل ما فيها بعد ان حمل جثة احد الاموات حتى لا يصاب بالرصاص الذي كان يطلق عليه ، واخذ يضع براميل البارود حول الردهة ، حتى اذا دخـل جميـع

رجال هنري اليها ، اشعل النار في احداها ، واسرع الى رواق يشرف على الحديقة فوقف ينتظر ما يكون .

وبعد ثوان حدث الانفجار الهائل الذي هدم البناء وما حوله ، وطمر رجال هنري دي موتمورانسي تحت الانقاض ، فلما شاهد هنري ما حدث كاد يغمى عليه من القهر ، وتأكد ان اكثر رجاله قد ماتوا او جرحوا .

ولكن بارداليان الاب اصيب ببعض الحجارة التي ارتفعت في الجو من هول الانفجار ، ثم سقطت على الارض ، فتكسرت بعض اضلاعه ، والقته ارضا ، وقد وجده ابنه على هذه الحالة ، فحمله على ظهره ، واسرع به الى الحديقة ، حيث وضعه في المركبة ، ثم امتطى جوادا ، وسارت المركبة الى اقرب باب من ابواب باريس ، وهو لا يدري كيف ينجو ... ولا كيف يخرج .

وكان من يقف في طريقه من الثائرين يلاقي عنتا عظيما وسيفا قاطعا ، حتى وصل الى احد ابواب باريس ، فوجده مقفلا والجنود حوله ، فطلب مقابلة الضابط وطلب منه فتح الباب ، فرفض ، فقرر الشاب عندئذ اقتحام الباب ، ولو سفك دمه في سبيل ذلك .

وفي هذه اللحظة وثبت لويزا من المركبة ، وقدمت للضابط ورقة ما ان قرأها ، حتى امر بفتح الباب حالا ، فخرجت المركبة وبارداليان قدامها .

وكان بارداليان الاكبر قد اعطى لويزا الورقة المعلومة لما وصلوا الى الباب .

وبعد قليل اقبل هنري مع بعض رجاله ، فوجد الباب مقفلا ، ورفض الضابط فتحه له ، فارتد خائبا .

وبعد دقائق وصل (مورفر) ، ففتح له الباب لانه كان يحمل ورقة بأمر الملك ايضا تخوله مغادرة باريس .

وكان مورفر قد شاهد كلب (بارداليان) في الطريق فعرف انه لا بد ان يكون خلف سيده فتبعه ، حتى وقفت المركبة للراحة في احد الاحراج ، واخرج بارداليان اباه من المركبة ليعالجه ويضمد جروحه ، فتسلل مورفر يريد ان يطعنه غدرا بخنجره ، ولكن لويزا شاهدته وامسكت بيـده ، فأصابها الخنجر في صدرها ، واسرع مورفر الى جواده فولى هاربا قبـل ان يتمكن بارداليان من الوصول اليه .

★ ★ ★

لقد كان جرح لويزا خفيفا ، لان يد مورفر ارتجفت فلم تصب منهـا مقتلا .

ولما اطمأن بارداليان الى سلامة خطيبته ، عاد الى ابيه فوجده في حالة النزع فأخذ يبكي ، والاب يهدىء من روعه ، ويباركه هو وخطيبته ، ثـم التفت الى المارشال وقال له :

ــ وانت يا سيدي المارشال ، هل توافق على زواج ولدينا ؟. قل يا سيدي كلمتك لاقابل الموت مرتاح البال .

فبكى المارشال وقال :

ــ ان ولدك ولدي ، وسيتزوج ابنتي ، واقسم لك على ذلك ..

ــ ولكني سمعتك تقول انك ستتزوج ابنتك من رجل يدعى الكونت دي مارجنسي .

فأشار المارشال الى بارداليان وهو يقول :

ــ هذا هو الكونت دي مارجنسي .. الـذي كنت اعنيه ، وهـذه الكونتية له ، وقد وهبتها لولدك وجعلتها مهر ابنتي .

فابتسم الاب وقال :
ـ هات يدك يا بني .
وبعد ان شد عليها قليلا قال :
ـ اني احب ان ادفن في هذا المكان وبقرب هذا النبع من الماء .. ثم اغمض عينيه ومات .

وبكى باردالیان بكاء مرا لفقد ابيه ، ثم دعا المارشال جماعة من الفلاحين حفروا للبطل قبرا ، وبعد ان واروه التراب توجهوا الى حصن موتتمورانسي حيث اطمأنوا فيه الى سلامتهم .

وكذلك انتهت هذه القصة من مغامرات باردالیان ، وتتبعها قصص اخرى مثيرة هائلة .. يلعب فيها هذا البطل الشاب ادوارا عظيمة تحير العقول ، وتشيب الاطفال .

ومن حق القارىء علينا وقبل ان نختم قصتنا هذه ، ان نحدثه عن ابطال هذه الرواية ومصايرهم .

لقد سافر (مورفر) الى رومية ، ثم عاد منها ، ولا هم عنده الا قتل باردالیان .

واما الدوق دي كيز ، فقد ثقل عليه فشله في الوصول الى العرش فعاد الى ارضه وودع اللوفر وهو يقول :
ـ سنعود اليك في المستقبل .

اما هنري دي موتتمورانسي فقد كان اشد الجميع نكدا وغضبا وحقدا ، لقد فشل في الوصول الى اخيه وزوجة اخيه ، وقتل باردالیان وابوه اكثر رجاله ، وكان يصاب بالجنون حين يذكر ان رجلين هزما جيشه الكبير .. حتى مرض مرضا كاد يشرف منه على الموت ، ثم شفي منه .
واما الدوق دي انجو فقد جلس على عرش فرنسا بعد موت اخيه

الذي اشتدت عليه نوباته فقتلته ، وتسمى باسم هنري الثالث •

وكانت امه كاترين تنتظر ان يكون كالخاتم في يدها بعد ان قـامت بالمستحيل لتوطيـد العرش له ، ولكنـه لم يفعل ، فأهينت في عهـده ، واحتقرت كما كانت تحتقر في عهد زوجها الماضي •

واما باردواليان ، فقد قرر المارشال الهائه عن حزنه ، فجند جيشا مـن انصاره ولاه قيادته ليقضي على الفتن والمجازر الدينية في منطقته ، فعـاد بعد ثلاثة اشهر ظافرا منتصرا •

وكانت (جان) في هذه الاثناء ، ولوجودها بين الاشجار والحدائق ، وقد انتعشت وخف ذهولها ، حتى اذا حان موعد عقد الزفاف ، ودخـل العروسان الى كنيسة القصر وعقد الكاهن لهما عقد الزواج ، خرجت جان فجأة من ذهولها ، وعاد اليها عقلها ووعيها ، وصاحت تقول :

ــ يا الهي ماذا ارى ، اهذا انت يا فرانسوا! •• اهذا انت يا لويزا ؟•

« ما هذا الاكليل المعقود على رأسك يا فتاتي الصغيرة » ؟

وبكى الجميع فرحا •

وادركوا انها عادت الى وعيها ، فاسرعوا اليها يقبلونها •

وهكذا شفيت جان وعادت الى زوجها ، كما عاشت لويزا مع باردواليان •• في هناء وسعادة وامان •

انتهى هذا الكتاب